المحاضرة الأولى

اللغة العربية والتعريب العلمي في سورية
في الحاضر ونظرة إلى المستقبل، قضايا وحلول

الأستاذ الدكتور غدير إبراهيم زيزفون
مدير المركز العربي للتعريب
والترجمة والتأليف والنشر- دمشق

السبت ٢٦ ذو الحجة ١٤١٧هـ- ٣ أيار ١٩٩٧م

١ – مقدمة:

لا شك أن لغة الأمة هي أهم مقومات شخصيتها وهي سجل تجاربها ومعارفها وعلومها وأمجادها عبر الزمن، بل هي وطنها الروحي، ولذلك تحافظ الأمة على لغتها كما تحافظ على حياتها، وتُعنَى بسلامتها وصحة تطورها حتى تستطيع تحقيق غاياتها العلمية والأدبية والفنية فتيسر لأبنائها استيعاب المعارف مهما تعددت مصادرها وتنوعت أشكالها، واللغة بهذا المعنى هي الطريق التي تصل حاضر الأمة بماضيها وتربطها بمستقبلها، فهي سجل حضارتها السالفة ومطية حضارتها الطارفة، وتمثل إرادتها الفكرة المتطلعة نحو التقدم والازدهار[١].

وكما أن الناس يهدفون دوماً إلى تطوير بلادهم بالعمل الجاد والتخطيط المنظم كذلك يسعون إلى جعل لغتهم قادرة على التعبير عن مختلف مآربهم وعن خفي خوالجهم وعن مقتضيات العلم ومستجدات المعرفة ومستحدثات التقدم كي تواكب سير الحضارة الإنسانية المتسارع، بل يجعلونها متهيئة لاستقبال مستجدات العلم والمعرفة وحسن استيعابها وسهولة التصرف في آفاقها المتعددة.

واللغات كالأمم تتقدم وتتأخر بل إن تقدم اللغة وتأخرها يكاد يساير ويوازي تقدم الأمة وتأخرها ولئن تخلف العرب في ميدان العلوم في الوقت الحاضر، فقد كانوا قد تصدوا في أوج سلطانهم وذروة تقدمهم الحضارات العالم القديم وثقافات من سبقهم من الأمم كالفرس والهنود واليونان وعلومها، فأقبلوا ينهلون من معين تلك الثقافات والعلوم وينقلونها إلى لغتهم العربية الواحدة المبينة ليتمثلوها ويزيدوها عمقاً وغناء ويغذوها بعبقريتهم الفذة ويصوغوها ثقافة عربية أوسع شمولاً وعلوماً أكثر تطوراً شعت أنوارها في ظلمات العالم القديم قروناً عديدة.

وقد استطاعت اللغة العربية عندما واجهت تلك الثقافات والعلوم وما تضم من أسماء للأعيان والمعاني لم يكن للعرب معرفة بها أن تستوعب التسميات الجديدة بفضل ما أُوتيت من غنى ومرونة وقدرة على التوليد والاشتقاق. وبذلك غدت لغة الفكر والعلوم في العالم حقبة طويلة من الزمن، أما اليوم فالأمة العربية ليست في طليعة الركب الحضاري، وعلى الرغم من موقعها الجغرافي المهم وغناها بالثروات البشرية والمادية تعصف بها عواصف سياسية تفرقها وتبعثرها على دويلات متفرقة

فتهدر القوى فيتوزّع الغنى وتتقزم الإمكانات البشرية والاقتصادية فيحول ذلك كله دون اللحاق بركب الحضارة، وقد أثر هذا الوضع المتفكك في اللغة العربية فأوهن قوتها وقادها إلى التخلف عن مسايرة التطور العلمي والتقني الراهن، وعلى المسؤولين في الأمة تقع تبعة تلافي التخلف وتبعة العمل على اللحاق بالركب الإنساني أيان بلغت مواقعه ومهما اشتد تقدمه، والمسؤولون في الأمة هم أفرادها الذين نيط بهم العمل على رفع شأنها ومساعدتها على الارتقاء إلى مصافِّ الأمم المتقدمة، ولا شك أن مسؤولية الارتقاء باللغة العربية وتطويرها يقع على كاهل المفكرين والباحثين والقادة التربويين واللغويين وبشكل خاص على أساتذة الجامعات للدور الريادي المنوط بهم في تهيئة شباب الأمة تعليمهم وتثقيفهم، ومن هنا كان للتعليم باللغة العربية الأهمية الفريدة والشأن الكبير اللذان يتجليان بالجدل الشديد الذي نصادفه في الأنشطة والاجتماعات واللقاءات التي تعقد في جميع أرجاء الوطن العربي التي تهدف إلى تطوير التعليم وسهولة تلقين العلوم والتقانة، أو ما اصطلح على تسميته بمشكلة تعريب التعليم العالي أو التعليم الجامعي في الوطن العربي.

والتعريب اصطلاحاً هو إيجاد مقابلات عربية للألفاظ الأجنبية للتعليم باللغة العربية واستعمالها في ميادين المعرفة البشرية كافة[٢]، ويقصد بالتعريب حالياً استعمال اللغة العربية لغة قومية في الوطن العربي واستعمالها في التعليم بجميع مراحله والبحث العلمي بمختلف فروعه وتخصصاته واستعمالها لغة عمل في جميع مؤسسات الدولة والمجتمع ووزاراتها وإدارتها [٣] ، ولكن التعريب في الواقع يعني سيادة اللغة العربية على أرضها بما يوحد المشاعر العربية ويجمعها حول تاريخها وواقعها ومصيرها وبالتالي فهو الوسيلة للخروج من دائرة التخلف الاجتماعي المتمثل في التجزئة والاعتماد على اللغات الأخرى في تمثل المعارف، ولذلك يعطي التعريب في معناه الأكثر شمولاً، للوحدة العربية مضمونها الحضاري المعاصر ويعينها على كسر طوق التخلف والتحرر من أنواع التبعات الاقتصادية والتقانية والثقافية [٤].

ومن هنا تكون الغاية من التعريب هي أولاً خلق شخصية إبداعية عربية متميزة تمتلك القدرة الذاتية على إنتاج العلم وتوطين التقانة، وثانياً توليد القدرة على المشاركة والتفاعل من منطلق متميز أي أن تسهم الأمة العربية في الحضارة العالمية المعاصر بضم قدرتها البشرية والعلمية والمادية وتوحيد استراتيجياتها تنموياً وتحقيق إسهام كبير في تطور العلم والتقانة في العالم، والسبيل إلى ذلك هو الإنسان الذي يتلقى علوم العصر، بلغته ويبحث فيها فيكون ذلك إغناء للثقافة العربية بين المتخصصين المتعلمين وجماهير الشعب بما يوسع من قاعدة المشاركة وصنع الوعي بالتقدم ودعم الشعوب بالحاجة إليه والإسهام في تطويره [٥]، وهذا يعني أن التعريب فعل حضاري شامل ذو اتجاهات عدة، وقد اعتمد هذا المفهوم الواسع للتعريب في تحليلي التجربة السورية بهدف الاطلاع على تطور عملية تعريب التعليم في قطر عربي اعتمد التعليم باللغة العربية منذ بداية هذا القرن.

٢- مرحلة البداية

بعد انهيار الحكم العثماني وانتهاء الحرب العالمية الأولى مرت سورية بفترة استقلال قصيرة اتصفت بشعور قومي عارم مهدت له حركة إحياء شملت بلاد الشام قاطبة ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر وانتهاء بسقوط الحكم التركي عام ١٩١٨، ونجم عن هذا الشعور القومي إحساس بضرورة امتلاك مقومات السيادة العربية على الأرض العربية وضرورة مواكبة العالم المتحضر [٦]، فبعد انسحاب الأتراك قام الطلاب الذين انقطعت دراستهم في مدرسة الطب العثمانية بحث رجال الثقافة والفكر على إنشاء مدرسة للطب في دمشق على أنقاض المكتب الطبي العثماني، تعلم الطب والصيدلة ويتولى التدريس فيها أطباء عرب، على أن تكون العربية لغة التعليم فيها، وأطلق على هذه المدرسة اسم المدرسة الطبية العربية، وقد خصصت الحكومة الفيصلية حينذاك موازنة خاصة للاتفاق على هذه المدرسة وعلى مدرسة الحقوق لتؤلفا نواة جامعة عربية في سوريا، وقد تخرجت الدفعة الأولى من طلاب المدرسة الطبية العربية عام ١٩١٩

من الذين ابتدأت دراستهم العلمية باللغة التركية وأنهوا السنة الأخيرة باللغة العربية وبلغ عددهم ثمانية وأربعين طبيباً [٧].

وليست دمشق أول من علّم الطب باللغة العربية في العصر الحديث، فقد بدأت التجربة الأولى في القرن التاسع عشر حينما أنشأ محمد علي باشا مدرسة الطب في القاهرة سنة ١٨٢٧م وظلت هذه المدرسة تدرّس بالعربية حتى عام ١٨٨٧ حينما قرر أن تكون لغة التعليم فيها هي اللغة الإنجليزية بضغط سياسي من البريطانيين. وكذلك أسهمت بعض المدارس التبشيرية في تركيز الشعور القومي باعتمادها اللغة العربية نكاية بالأتراك، ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ سرعان ما فطن إلى أن تعزيز اللغة العربية يسهم في يقظة العرب ويخلق منهم أمة قوية قد تستعيد مجدها الغابر، فتخلت عن اللغة العربية وتحولت إلى لغات الدول التي افتتحتها، كما حدث في الكلية الإنجليزية السورية في بيروت التي تعرف اليوم باسم الجامعة الأمريكية، حيث بدأت عام ١٨٦٦ التعليم باللغة العربية ثم تحولت إلى اللغة الإنجليزية عام ١٨٨٤م. وكذلك كانت حال المدارس التي افتتحها روسيا القيصرية في القدس والناصرة وحمص [٨]، والكلية اليسوعية التي أسسها الفرنسيون في بيروت، وبقيت جامعات الوطن العربي على قلة عددها يومئذ، قرابة خمس وثلاثين سنة، درّس العلوم الطبية بلغات أجنبية حتى تبنت دمشق قضية التعليم باللغة العربية في عام ١٩١٩.

استمرت بدايات التعريب في سورية فترة قصيرة ١٩١٨–١٩٢٠، إلا أن هذه الفترة اتسمت ببذل جهود جبارة لتعريب جميع مناحي الحياة في سورية، ففي ميدان الجهود الرسمية رأت الحكومة الفيصلية أن عليها كي تكون جديرة بحمل السمة العربية أن تنشئ دولة تستعمل إداراتها ومؤسساتها وجيشها اللغة العربية، وكان عليها كما قال ساطع الحصري "أن تحول اللغة الرسمية من اللغة التركية إلى العربية في جميع الدوائر والمدارس والدواوين". لقد كانت أهم إنجازات العهد الفيصلي على طريق التعريب تأسيس المجمع العلمي العربي وتعريب المدارس الرسمية، وقد أسهم المجمع في تعليم موظفي الدولة قواعد الإنشاء وأساليب التراسل وترجم المصطلحات الإدارية وراقب لغة الكتب المدرسية والمجلات والصحف وأقام

العديد الإدارية وراقب لغة الكتب المدرسية والمجلات والصحف وأقام العديد من المحاضرات والندوات العامة التي مهدت له سبيل الاتصال بالحياة العامة و شجعت مؤسسات الدولة على طلب مساعدته في تعريب الكثير من الكلمات والتعابير المستعملة.

والسمة المميزة للعهد الفيصلي هي الاهتمام الكبير بتعريب التعليم، فقد شكل لجنة الاصطلاحات العلمية المستعملة في الكتب المدرسية برئاسة ساطع الحصري، كما اهتم بالتعليم العالي الذي كان مقتصراً على معهدي الطب والحقوق وراح يشجع على التدريس باللغة العربية وعلى تأليف الكتب الجامعية الاختصاصية ومهد بذلك السبيل إلى وضع المصطلحات الخاصة بالطب والحقوق، وقد ساعد الدولة على نجاح التجربة الإيمان الكبير بالانتماء العربي وبضرورة رفع شأن اللغة العربية، ذلك الإيمان الذي كان يتحلى به جموع المعلمين واللغويين والأدباء وغيرهم من قادة الفكر في تلك المرحلة، ولولا الجهود المخلصة التي بذلها هؤلاء لما كتب النجاح لمرحلة بداية تعريب الحياة في سوريا.

ومهما يكن الأمر فإن البداية السليمة للتعريب حصلت نتيجة تضافر الجهود الرسمية والخاصة، وقد مهد لنجاح هذه البداية توافر أربعة أركان أساسية هي القرار السياسي والإيمان بالتعريب وسيلة لتحقيق بعث حقيقي للأمة العربية ووضح الهدف والإفادة من المناخ المواتي.

٣- مرحلة التأسيس

لم تستمر مرحلة الحكم الفيصلي طويلاً، فسرعان ما قضى الفرنسيون على الحكومة العربية الأولى وبدأت مرحلة الانتداب التي استمرت من عام ١٩٢٠ حتى ١٩٤٥، وقد حاول الفرنسيون في هذه المرحلة كبح الشعوب القومي ولجؤوا إلى عرقلة التعريب وإلى فرض لغتهم ومناهجهم على التعليم. بيد أنهم لم يستطيعوا تحقيق نصر حاسم في هذا المجال، فالشعور القومي لم يخمد والحماسة للعربية لم تهمد وإنما ازدادت تأججاً وأصبحت ملازمة لمسألة النضال ضد الاستعمار والتخلص منه، وقد ساعد في ذلك عدم بقاء الفرنسيين في سورية مدة طويلة تمكنهم من تحقيق غاياتهم في القضاء على الشعور القومي، ولا شك أن فترة

الانتداب قد أثرت سلبياً كبيراً على عملية التعريب، ولا شك أن فترة الانتداب قد أثرت تأثيراً سلبياً كبيراً على عملية التعريب، فقد لجأ الفرنسيون إلى فرض لغتهم في المدارس وشجعوا على تعليمها، وأغدقت الأموال على المدارس الأهلية التي تعلم بالفرنسية ويسرت أمورها، على حين حوربت المدارس الأخرى وحرمت من أي نوع من الدعم المادي وأرهقت بالشكليات التي كانت تفرض عليها[٩] بغية دفعها إلى الإغلاق، وعلى الرغم من كل هذه التدابير لم يستطع الفرنسيون تحقيق مأربهم نتيجة الكره الشديد للاستعمار الفرنسي وتأجيج الشعور الرافض له من خلال الثورات السورية التي لم تهدأ، الأمر الذي جعل إتقان اللغة العربية دلالة على وطنية الطالب والتفاني في تعليمها دلالة على وطنية المعلم [١٠].

ومع ذلك لم تتوقف عملية التعريب خلال هذه الفترة تماماً، على الرغم من تباطئها. فقد صدرت مجلة مجمع اللغة العربية في بداية عام ١٩٢١ وكان لها الفضل في نشر العديد من البحوث والدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية، كما سعى المجمع إلى تأليف معجم جديد للغة العربية. ووضع عام ١٩٢٣ مشروع كلية الآداب ونجح في افتتاح نواتها الأولى عام ١٩٢٤، وابتدع سنة منح الجوائز التشجيعية لمن يخدم اللغة العربية ويسهم في إحياء تراثها.

وكذلك كان للأساتذة الجامعيين فضل كبير في دفع عملية التعريب في هذه المرحلة، فقد أصروا على التعليم بالعربية في معهدي الطب والحقوق، وعكفوا على وضع المصطلحات العلمية بكل أدب وكد، وحرصوا على إيراد مسارد المصطلحات باللغتين الفرنسية والعربية في نهاية كتبهم الجامعية، وأصدر أساتذة الطب مجلة المعهد الطبي العربي عام ١٩٢٤، وتعاهدوا على القيام بمهمة التدريس بالعربية وعلى جعل اللغة العربية تتسع للعلوم الطبية كما اتسعت للعلوم الحقوقية [١١]، وقد نجح بعض الأساتذة في تأليف الكتب العلمية في الاختصاصات الدقيقة باللغة العربية، وكان هذا التأليف الكتب العلمية في الاختصاصات الدقيقة باللغة العربية، كان هذا التأليف العلمي باللغة العربية دليلاً على قدرتها على استيعاب العلوم الحديثة، ويجب أن لا نعتقد أن الأمر كان سهلاً على هؤلاء الرواد، فقد دأب الأساتذة غير الضالعين باللغة على استكمال ما كان ينقصهم

وبذلوا جهوداً جبارة كي يمتلكوا ناصية اللغة ويلقوا محاضراتهم بلسان عربي سليم. ويورد الأستاذ سعيد الأفغاني مثالاً في إحدى حواشي كتابه "حاضر اللغة العربية في الشام" على الجهد المضني والعزم الصحيح فيقول "حدثني الدكتور الشطي أن النطاسي المشهور المرحوم سامي الساطي – وكان قد تعلم بالتركية ونشأ نشأة تركية– كان يكتب الدرس ويكلف حاذقاً بالعربية إصلاح لغته فيجدها هذا غير قابلة للإصلاح فيكتبها من جديد فيحفظها الساطي عن ظهر قلب ويغدو في الصباح يحاضر بها طلابه، ولا يقل ما ينفقه على ضبط لغة المحاضرة الواحدة عن أربع ساعات، وهذا ما دفع الأستاذ كرد علي إلى القول "وبعد عشرين سنة مضت على هذا التدوين ارتقى مستوى التعليم في الجامعة السورية وارتقت اللغة العربية باعتزال من رُبوا تربية تركية ووسد إليهم أمر التعليم أول إنشائها، وجاء أساتذة أتقنوا اللغة العربية وآدابها وهم اليوم يلقون دروسهم بلغة أقرب إلى الفصحى وقد وضعوا التأليف في الطب والحقوق بلغة عربية مقبولة.

٤– مرحلة التوسع والترسيخ

يمكن القول إن هذه المرحلة تمتد من بعد الاستقلال عام ١٩٤٦ وحتى منتصف السبعينات، وقد اتصفت هذه المرحلة بنشاط شديد يهدف إلى تعميق تعريب الحياة في سورية، وقد افتتحت في منتصف هذه الفترة كليات جديدة في الجامعة مثل كلية العلوم والهندسة والتجارة والاقتصاد والصيدلة وطب الأسنان كما افتتحت مئات المدارس في المدن والأرياف وبذلت عناية فائقة بإعداد المعلمين والمدرسين لغوياً وتربوياً ويسرت سبل الطباعة والتأليف والترجمة.

كان عدد الأساتذة في الجامعات في البداية قليلاً جداً وكان معظمهم ممن أوفدوا للتخصص في فرنسا أبان عهد الانتداب، كان هؤلاء يتميزن بقدرتهم الكبيرة على الكتابة باللغة العربية وعلى الترجمة من اللغة الفرنسية، ولما كان القرار السياسي واضحاً لا لبس فيه ويلزم جميع من يعلم في التربية والتعليم في مختلف المستويات التدريس باللغة العربية وتوفير الكتاب والمرجع العربي، لذلك استطاعت تلك القلة من الأساتذة أن تنجز خلال فترة بسيطة من الزمن أعمالاً جليلة في التأليف والترجمة، اعتبرت اللبنة الأساسية التي قامت عليها عملية تعريب التعليم الجامعي

في سوريا، ولولا نجاح هؤلاء الرواد الأوائل لاستطاع على الأغلب المناهضون لحركة التعريب عرقلة حركة التعريب وتأخيرها فترة غير قصيرة من الزمن، والمتابع لهذه الفترة يشهد صدور عدد لا يستهان به من كتب الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء والطب والصيدلة إضافة إلى كتب العلوم الإنسانية وعلم الاقتصاد؛ ولكن هذه الكتب لم تكن تفي بالغرض، فالاختصاصات المطلوب تدريسها متنوعة وكثيرة في حين أن عدد المدرسين الذين يقع على كواهلهم عبء التأليف بالعربية قليل إلى حد يجعل من المستحيل تقريباً توفير كتب عربية في جميع الاختصاصات، وهكذا ظهرت الأملية الجامعية لحل هذه المشكلة، ولم تكن الأملية الجامعية سوى ترجمة سريعة لمواضيع المحاضرات التي يلقيها المدرس على طلابه في مادة من مواد المنهاج، ويختار المدرس موضوع كل محاضرة من كتاب أجنبي يراه مناسباً؛ ويقوم المدرس بتشذيب أمليته كل عام فيضيف إليها أو يحذف منها وفقاً لاستجابة طلابه وفهمهم واستيعابهم لموضوع المحاضرة، ولم تسمح القواعد التي كان معمولاً بها في الجامعة بتحويل الأملية إلى كتاب جامعي مطبوع إلا بعد مضي ثلاث سنوات على الأقل على تدريسها، على أن تعدل وتدقق وتصوب وتغنى كل سنة، وعندما يراد تحيل الأملية إلى كتاب مطبوع يقوم مجلس القسم بناء على تقرير تقويمي من أستاذ الاختصاص الذي يقع فيه موضوع الأملية بإقرار ذلك آخذاً بالحسبان توافق الأملية مع المنهاج المقرر وحسن الصياغة وسلامة اللغة ودقة التعبير والتقيد بالمصطلحات المعتمدة في القسم، وقد أغنت هذه الآلية التي بقيت متبعة في الجامعات حتى عام ١٩٧٦، المكتبة العربية بمئات الكتب العربية في مختلف الاختصاصات العلمية والإنسانية، وقد ساعد هذه الآلية على النجاح بعض القواعد والإجراءات التي فرضتها الجامعة بغية الترغيب التشجيع على التأليف كتخصيص جائزة مناسبة مجزية للمؤلف أو المترجم واعتبار التأليف أحد الشروط الواجب توافرها في عضو الهيئة التدريسية في الجامعات المؤهلة للترقية من مرتبة جامعية إلى أخرى.

وإضافة إلى ما كانت تصدره الجامعة من كتب منهجية قامت وزارة التعليم العالي بالتصدي لمهمة ترجمة الكتب المرجعية، فكانت تختار سنوياً عدداً من أمهات الكتب الأجنبية المترجمة إلى أكثر من لغة من لغات العالم وفي

اختصاصات مختلفة فتؤلف لجاناً من الأساتذة المعروفين بغزارة المعرفة اللغوية وبراعة الترجمة والتعمق في الاختصاص لتكلفهم بالترجمة، ثم تقوم الوزارة بعد ذلك بطباعة هذه الكتب وتوزيعها بسعر الكلفة، وكانت وزارة التعليم العالي قد عقدت اتفاقات بهذا الشأن مع بعض دور النشر الأمريكية والروسية ونجم عن ذلك ترجمة العديد من الكتب المرجعية النفسية في العلوم الأساسية والطب والهندسة دعمت إلى حد كبير الكتب المنهجية وقامت بدورها في توسيع معرفة الطالب بالمسافات المقررة له.

والخلاصة فقد كانت مهمة التعريب في هذه المرحلة صعبة وقاسية ولكن الجيل الأول من المدرسين كان جديراً بحمل أمانة التصدي لتلك المهمة القومية الجليلة، فوضعت المصطلحات العلمية التي ما زال معظمها معتمداً حتى اليوم، ونظراً ما كان يتمتع به أفراد ذلك الجيل من المدرسين من خبرة عالية في مجال تخصصهم ومعرفة متعمقة باللغة العربية وإحساس عميق بالمسؤولية فقد جاءت كتبهم وأماليهم معبرة وواضحة ومفهومة، فساعدت إلى حد كبير على ترسيخ تجربة تعريب التعليم العالي، وسار الجيل الثاني والثالث من المدرسين على هدي الجيل الأول وسلكوا نفس السبيل فوسعوا التجربة وأضافوا إليها ووصلوا بها إلى مستوى من النجاح يدعو إلى الفخر والاعتزاز.

٥- المرحلة الحاضرة

يمكن القول إن هذه المرحلة بدأت عام ١٩٧٦ وهو عام صدور قانون التفرغ الجامعي وما زالت مستمرة حتى الوقت الحاضر، في بداية السبعينيات أخذ عدد طلاب التعليم العالي بالازدياد بشكل كبير جداً بسبب التوسع في التعليم العالي الذي شهد اهتماماً كبيراً وإقبالاً منقطع النظير، وقد افتتحت جامعات جديدة لاستيعاب الأعداد المتزايدة من الطلاب ضمن ما يسمى بسياسة الاستيعاب التي نصت على إتاحة التعليم العالي شبه المجاني لكل طالب راغب فيه وحاصل على شهادة الدراسة الثانوية، في البدء لم تترافق الزيادة الكبيرة في الطلاب بزيادة مماثلة أو مناسبة في عدد أعضاء هيئة التدريس، فازداد الطلب على المالي الجامعية الموجودة ونيطت مهمة طباعتها بالاتحاد الوطني للطلبة، وهي مهمة يجهل

أصولها ودقائقها. فتردّى مستوى الأمالي الجامعية، وصدرت ملأى بالأخطاء الطباعية وغير مقروءة في معظم الأحيان لأن عضو هيئة التدريس لم يكن يُعطي الفرصة الكافية لتصحيحها أو إذا أعطيت له هذه الفرصة لم يقم الطابعون بإجراء التصحيح إهمالاً أو اختصاراً للوقت.

وكانت الدولة عندما أقرت سياسة الاستيعاب قد أقرت عدة إجراءات لتحقيق هذه السياسة، منها توسيع الأبنية الجامعية والمخابر وزيادة عدد أعضاء هيئة التدريس، فقامت بإيفاد أعداد كبيرة من خريجي الجامعات للتخصص والحصول على المؤهل العلمي اللازم للتعيين في عضوية هيئة التدريس، ولكن نظراً لظروف اقتصادية صعبة اتجه إيفاد الطلاب في معظمه باتجاه منظومة الدول الاشتراكية وفرنسا من الدول الغربية (دول تقدم منحاً دراسية) وفي بداية الثمانينات أخذ هؤلاء الموفدون بالعودة إلى الوطن والقيام بالتدريس في جامعات القطر المختلفة، وقد تزامن ذلك مع صدور قرار يقضي بإلغاء الأمالي الجامعية وتشكيل لجنة إنجاز الكتب الجامعية التي خصص لها موازنة سخية وطلب منها العمل على توفير الكتب الجامعية للطلاب بأسعار تتناسب مع إمكاناتهم المادية.

تعد هذه الفترة نقطة انعطاف حادة في مسيرة التعريب السورية، وهي كغيرها من الأعمال كان لها محاسن ومساوئ، وقد نشأت المساوئ عن السرعة الكبيرة التي رافقت التنفيذ، فالرغبة والحماسة لتحقيق هدف جليل أفقدت المشرفين على التنفيذ فضيلة التروي وحسن تدبير الإجراءات التي كان عليهم اتخاذها للوصول إلى الهدف، الأمر الذي أدى برأيي إلى ظهور بعض السلبيات التي سيستغرق تصحيحها وقتاً ليس بقليل، لقد كان أبرز ما أنجز خلال هذه المرحلة الخيرة هو توفير أكثر من كتاب مطبوع لكل مقرر من المقررات الجامعية وبذلك زودت المكتبة العربية بعدد وافر من الكتب في كل الاختصاصات العلمية الأساسية والتطبيقية تتيح للطلاب السوريين التزود بما يحتاجونه من المعرفة وكذلك تيسر في الوقت ذاته للدول العربية التي تحاول تعريب تعليمها العالي تذليل أهم عقبة تعترض محاولتها وهي توفير الكتاب العلمي المكتوب باللغة العربية، وتبين الجدول من ١-٤ الواردة في نهاية هذه المقالة عدد الكتب المطبوعة سنوياً ابتداء من عام

١٩٨١ وحتى عام ١٩٩٥ في جميع كليات جامعات الجمهورية العربية السورية قبل المرحلة الحالية وبعدها [١٢]، وتدل تلك الجداول على أن عدد الكتب التي طبعت خلاله المرحلة الممتدة من عام١٩٨١ وحتى الوقت الحاضر بلغ ٥٨٦١ كتاباً في جامعة دمشق و ٣٠٢٠ كتاباً في جامعة حلب و٦٨٥ كتاباً في جامعة تشرين و٦٣٣ كتاباً في جامعة البعث، أي ما يربو على العشرة آلاف كتاب، وهو إنجاز كبير ودعم أكيد لمسيرة التعريب السورية.

لقد أشير إلى وجود بعض السلبيات في العمل السابق، وقد نشأت هذه السلبيات عن عدم تعديل القواعد والقوانين المتعلقة بالتأليف التي كان يعمل بها في المراحل السابقة قبل تطبيقها على المرحلة الحالية المختلفة تماماً عن المراحل السابقة، تلك القوانين التي تسمح لأي مدرس بتأليف كتاب للمقرر الذي يدرسه دون أي قيد أو شرط، سوى التقييم العلمي من قبل القسم، ولكن المرحلة الراهنة تتميز بوجود عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس المؤهلين في بلدان مختلفة تتفاوت في درجات تقدمها العلمي تفاوتاً كبيراً، وكذلك تتفاوت وبدرجة أكبر الكفاءة العلمية لهؤلاء المدرسين الجدد وقدرتهم على الترجمة بلغة عربية سليمة، ولما كانت معظم الكتب المنجزة ليست سوى ترجمات لفصول أو فقرات من كتب أجنبية متنوعة لذلك كانت الكتب المنجزة متفاوتة في الجودة من حيث سلامة اللغة وسهولة الفهم وترابط الأفكار تبعاً لتفاوت مقدرة المترجم العلمية واللغوية.

٦- النظرة المستقبلية

لقد أصبح التعريب في سوريا حقيقة راسخة، رسوخ نظام التعليم السوري، والبنية الاجتماعية السورية، فلا سبيل لغير اللغة العربية وسيلة للتعليم في جميع مراحله وللبحث العلمي في جميع تفرعاته، وهذا الأمر مدعاة للفخر ونتيجة من نتائج نضال شاق قاد في النهاية إلى النتيجة الحالية المثمرة، والحق أن مناهج التعليم العالي جيدة لا تقل في المستوى عن مناهج الدول المتقدمة والكتب المعتمدة في جلها جيدة تعضد اللغة العربية وتوفر الفرص لإتقان المهارات المطلوبة وتخضع للتدقيق والتقويم قبل السماح بطبعها، فيلحقها التعديل والتبديل في مضمونها وشكلها وأسلوبها ولغتها، ولكن لا يعني ذلك كله إننا قد بلغنا مرحلة الكمال، على

العكس ينبغي دوماً أن تقوم التجربة وتنقد لتلافي الأخطاء وتجنب العثرات حرصاً على بقائها في عافية حياة متجددة تساير ركب التطور العلمي دون أن تتخلف عنه.

لقد بلغت مسيرة التعريب السورية حداً يتيح إمكانية التوقف قليلاً لتقييم الفترة الماضية ووضع إستراتيجية مناسبة للمرحلة المقبلة، فقد توافر في المكتبة الجامعية السورية عدد كبير من الكتب ينفي الحاجة إلى توفير الكم دون التركيز على النوع، وكذلك يتيح الوقت الكافي للمسؤولين عن التعليم العالي للتفكير باستراتيجية راسخة تأخذ بالحسبان توفير المرجع العلمي وليس الكتاب المنهجي المحدود والمقتصر على مواضيع مفردات مقر دراسي معين، فيعود ذلك بالفائدة ليس على خطة التعريب السورية فقط وإنما على أي خطة عربية أخري ترمي إلى تعريب التعليم العالي فيها، إن نظرة إلى ما تعتمده جامعات العالم من مراجع توصي بها طلابها تبين أن عدد تلك المراجع ليس كبيراً بالشكل الذي قد يتصوره البعض، والمقصود هنا المراجع العامة وليس الكتب العلمية ذات التخصص الضيق، إن وضع خطة محكمة لترجمة هذه المراجع سوف يعود بفائدة كبيرة محققة على التعليم العالي في مختلف فروعه ونشاطاته، إذ سينتهي الاقتصار على كتاب واحد محدد الصفحات للمقرر الدراسي فتنتهي بذلك مسالة التزام المدرس التقيد بتدريس مثل هذا الكتاب، وكذلك سيحد هذا الأمر من فتح المجال واسعاً أمام كل من يرغب بالترجمة والتأليف فلا يكلف سوى الشخص القادر علمياً والمتمكن لغوياً للحصول على كتب تتصف بسهولة الفهم وإتقان اختيار المصطلح والخلو من الأخطاء الطباعية واللغوية، ولما كانت الكتب التي جري اختيارها هي كتب مقرة في العديد من جامعات العالم المتقدم علمياً، لذلك سيمكن اعتمادها في عدد كبير من جامعات الدول العربية التي ما زالت تدرس باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، ولا يخفى ما لتوفير هذه المراجع بالذات مطبوعة باللغة العربية ومترجمة بشكل متقن، من دعم عملي لمسألة التعريب في الوطن العربي ورد عملي حاسم على معارضي هذه المسألة.

فمسيرة التعريب السورية وقد بلغت ما هي عليه من النضج والكمال ، يجب أن لا تخلد إلى الدعة والكسل اللذين يقودانها إلى التخلف وإنما يجب أن تتجدد وتبرز للمستقبل في حلة جديدة تفرضها الطبيعة المتطورة للعلم والتقانة في العالم، لا سيما وأن عليها تقع مسؤولية تعريف العلميين في الدول العربية الأخرى بمقدار الخطأ الذي يرتكبونه عند عدم الأخذ بالتعريب منهجاً للتعليم العالي في بلادهم عن طريق الرد العملي على كل مزاعمهم مثل قصور اللغة العربية وعدم قدرة الطالب المتخرج على متابعة الركب العلمي المتطور بسرعة وعدم وفرة المصطلحات العلمية المناسبة وقلة المراجع والكتب.

٧- التعميم ضرورة

لا شك أن تعريب التعليم العالي في الوطن العربي ضرورة قومية وحضارية ملحة، فلا يمكن أن تتقدم الأمة العربية علمياً وتقانياً وتسهم بشكل متميز في بناء الحضارة الإنسانية ما لم تستعمل لغتها في العلم والتعليم، فهل قامت النهضة الحديثة في اليابان والصين على التعليم بغير اللغة الوطنية وهل اللغة اليابانية والصينية أغنى أو أسهل من اللغة العربية؟ الحقيقة أنه لا يوجد شعب في العصر الحديث أشد عقوقاً للغته وأقل براً بها من الشعب العربي، وهذا الأمر يعود بالضرر الأكيد على التعليم والإبداع العلمي والتقاني في الوطن العربي، إذ لا يمكن أن يحدث الإبداع إلا من خلال تعويد الطالب منذ بداية تعليمه حتى مرحلة عطائه وإبداعه التفكّر باللغة التي تلقنها مع حليب أمه وكانت وسيلته للتفاهم مع أقرانه ثم مع مجتمعه في كل دقيقة من حياته، وإنه لتناقض عجيب أن نتحدث في كل مناسبة عن شرف اللغة العربية ونسهب في شرح مزاياها وسعة تراثها ثم نباعد بين طلابنا وبينها فنعزلها عنهم ونعزلهم عنها كأننا نقول لهم إنها لغة قاصرة وعاجزة لا تصلح للتعليم عندما ندرس بلغة أجنبية ولا ندرس بها، لقد بين العديد من الباحثين[١٣][١٤][١٥][١٦] ،أن الطلبة يعانون من مشكلات لغوية لا تمكنهم من فهم المحاضرات التي تقدم لهم بلغة غير عربية، إذ تظهر لديهم مشكلات في الكتابة والتفاعل الشفهي، ويفتقرون إلى المصطلحات العلمية والقدرة على تلخيص ما يدور في المحاضرات لأنهم يستمعون إلى ما يلقى عليهم بلغة أجنبية على حين يفكرون

بالعربية، ومن هنا كانت التوصيات المنبثقة عن هذه الدراسات كافة تدعو إلى اعتماد اللغة العربية لغة تدريس في الجامعات، وهذا الأمر ليس بالعجيب ولا هو بالغريب بل العكس هو الأمر العجيب، فليس هناك دولة في العالم لم تتخذ من لغتها القومية لغة للتعليم العالي في جامعاتها، وحتى إسرائيل نرى أنها تقيم كيانها على إحياء اللغة العبرية إذ كانت لأغلبية المهاجرين من اليهود إلى أرض فلسطين لغة في ألمانية والنمسا وروسيا وبولونيا وأوروبا الشرقية، ولكنهم تركوها ليحيوا اللغة العبرية التي ماتت عملياً منذ ألفي سنة، وشتان بين اللغتين العبرية والعربية في مسيرة الحضارة الإنسانية.

ويجب أن لا يغيب عن البال أن الدعوة إلى التدريس بالعبرية تشدد في الوقت ذاته على ضرورة إتقان لغة أجنبية عالمية (الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية)، لأن ذلك واجب لا بد منه لمتابعة التقدم العلمي، ولكن إتقان اللغة الأجنبية يجب أن لا يعني بأي حال استعمالها بديلاً عن العربية.

من المؤسف أن نجد أنفسنا في موقف علينا أن ندافع عن لغتنا ضد إخوة لنا يحاولون وأدها، ومن سخرية القدر أن يصبح لزاماً علينا إقامة الحجج وإيراد البراهين على صلاحية لغتنا للعلم والتعليم، تلك اللغة التي اختارها الله من بين اللغات جميعاً ليسمع بها كلماته العالم أجمع، "إنا أنزلناه قرآنا عربياً" صدق الله العظيم. فماذا لدى المعترضين على التعريب من حجج، يقولون:

١- إن لغة العلم والتقانة في عصرنا الحالي هي الإنجليزية، وإذا لم نعلّم بهذه اللغة نكون كمن يغلق نافذة العلم على الطلاب فيحول ذلك دون نمو تحصيلهم لدرجات عليا في الجامعات الأجنبية مع الاعتماد أن استعمال اللغة الإنجليزية في تدريس العلوم يعد أسرع وسيلة للسيطرة على هذه اللغة.

٢- إن عدد الكتب والمراجع باللغة العربية قليل وبعض ما يوجد منها رديء غير صالح.

٣- إن الأساتذة القادرين على التدريس بالعربية قلة.

٤- مشكلة المصطلحات العلمية وغرابة بعض المصطلحات العربية التي أصدرتها بعض المجامع اللغوية، واستعمال أكثر من مصطلح لكلمة واحدة واختلاف ذلك باختلاف الجامعة أو المركز أو البلد [١٧].

٥- مشكلة الرموز العلمية والأحرف والأرقام.

٦- مشكلة النشر والتوزيع.

إن نظرة فاحصة متمعنة إلى هذه المشاكل تبين سهولة حلها والتغلب عليها، ولنا في التجربة السورية التي لم نقل إنها وصلت إلى مرحلة الكمال، خير مثلا على المحاولات الجادة التي اتبعت للتصدي لمثل تلك المشاكل، وكذلك لنا في الحلول التي اتبعت للتغلب على تلك المصاعب أفضل وسيلة يمكن لكل محاول جاد اتباعها صورة معدلة عنها للوصول بالتعريب إلى صيغته النهائية المثلى، والواقع توجد وراء تلك الحجج والصعوبات التي ترد صراحة على لسان المعارضين للتعريب، أسباب أخرى خفية لا يجهرون بها، تعود تلك الأسباب إلى طبيعة التكوين الاجتماعي في معظم الدول العربية، ذلك التكوين الموروث عن عهد السيطرة الأجنبية. إن هناك قلة اجتماعية متدنية، فالطبقة الراقية هي الطبقة التي تجيد اللغة الإنجليزية أو الفرنسية ونرى أفرادها يلجؤون بكل مناسبة إلى التكلم باللغة الأجنبية أو خليط من العربية والأجنبية دلالة على علو طبقتهم الاجتماعية، ومن هنا ظهر رأي غريب عن بعض المتعلمين مفاده أن الطبقة المثقفة المتعلمة يجب أن تميز بالتكلم والتعبير بلغة غير عربية لتفريقها عن العامة.

ومهما يمكن من أمر، ومهما كانت الحجج المقدمة لمصلحة التعريب أو ضده فإن تلك القضية الجدلية يجب أن تحسم في الوطن العربي لمصلحة اللغة العربية في عصر أصبح التريث وعدم اتخاذ القرار المناسب بسرعة كافية أحد أقوى أسباب التخلف والضياع وفقدان الهوية. إن الصعوبات التي يصادفها كل من يقدم على التعريب لأول مرة حقيقة ولكن حلولها متيسرة واضحة إذا كانت الإرادة موجودة

وصحيحة، ولا بد عند الحديث عن التصدي لهذه الصعوبات وتوفير الحلول لها ووضعها أمام القادة التربويين العازمين على التعريب من إبراز الدور الكبير الذي يمكن أن تقوم به المنظمات العربية المتخصصة كالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أو المراكز التابعة لها المهتمة بمسألة التعريب وهي المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر في دمشق ومكتب تنسيق التعريب في الرباط.

يهتم مكتب تنسيق التعريب في الرباط بوضع المصطلح العربي الموحد بالتعاون مع مجامع اللغة العربية في البلدان العربية كافة ويقيم ندوات متخصصة تناقش كل ندوة مصطلحات علم من العلوم بغية الاتفاق عليها وإخراجها على شكل معجم يضم مصطلحات ذلك العلم المتفق عليها عربياً، وإذا اتخذ قرار سياسي في الدول العربية التي شاركت مجامعها ومؤسساتها التعليمية في الندوة باعتماد المصطلحات الواردة في المعجم الذي خرجت به الندوة وكان ذلك خطوة مهمة على الطريق الصحيح نحو توفير المصطلحات العلمية وتوحيدها في الوطن العربي وإزالة إحدى أهم الشكاوى التي تثبط همة الراغبين في التعريب.

أما المركز العربي للتعريب في دمشق الذي توليت إدارته منذ ثلاث سنوات ونيف فبإمكانه أن يقوم بدور فريد في دعم عملية تعريب التعليم العالي وتيسيرها للبادئ بها. فقد نيطت بهذا المركز مهمة ترجمة المراجع العلمية العامة والتخصصية وطباعتها ونشرها وتوزيعها مستعيناً لتحقيق ذلك بالخبراء والعلماء والأساتذة الجامعيين في كل أصقاع الوطن العربي، وينص النظام الداخلي للمركز على تشكل مجلس علمي له تمثل فيه معظم الدول العربية وبعض المؤسسات المهتمة بالتعريب، ويضم المجلس إضافة لذلك علماء يتمتعون بخبرة واسعة في الترجمة وبمقدرة علمية اختصاصية عالية. إن من أهم مهمات المجلس العلمي تحديد عدد الكتب المطلوب ترجمتها ونوعها وفقاً لمقدار أهميتها للدول التي تدرس بالعربية أو تنوي التدريس بها، ومن هنا تأتي الأهمية الكبيرة للمركز الذي يمكن أن

يقوم بتذليل وإلغاء معظم الصعوبات التي يتذرع بها مناهضو التعريب إن لم نقل كلها، إذ يمكن للمركز أن يتلقى سنوياً عروض ترجمة الكتب الأجنبية التي تعتمدها الجامعات مراجع توصي طلابها بالرجوع إليها وتمتحنهم بالمعلومات الواردة فيها، فيقوم المركز بترجمتها وطباعتها وتوزيعها بشكل رئيسي على الجامعات التي طلبتها وكذلك وبعدد أقل من النسخ على جميع الجامعات العربية الأخرى.

ولما كان المركز يتمتع بحرية كبيرة في التصرف فهو لا يكلف بالترجمة إلا من له خبرة كبيرة بها كما أنه يلزم المترجم باستعمال المصطلحات الواردة في معاجم مكتب تنسيق التعريب المتفق عليها من قبل، علماً أن المركز يقدم مكافأة مجزية للمترجم والمراجع العلمي واللغوي وينجز الطباعة والإخراج بالصورة نفسها التي أخرج فيها الكتب الأصل إن لم يكن أفضل.

لكن ما الذي يمنع المركز من أخذ دوره الذي رسم له؟ إن الصعوبات التي تعترض عمل المركز هي صعوبات مادية بالدرجة الأولى، فالاعتمادات التي تخصص له من قبل المنظمة لا تتناسب إطلاقاً مع الأهمية التي توليها المنظمة لمسألة التعريب. إن من يطلع على القرارات التي تصدر عن المجلس التنفيذي للمنظمة وعن مؤتمرها العام يرى أن هناك تشديداً كبيراً على تعميم التعريب في الوطن العربي إيماناً من المنظمة أن ذلك هو الطريق الوحيد الذي يوصل العرب إلى الإسهام الفعال في الحضارة العالمية المعاصرة، غير أن ذلك لا يعود على المركز المكلف بمهمة توفير المرجع العلمي المعرب للجامعات إلا بموازنة تكاد لا تبلغ ١% من موازنة المنظمة، ومع ذلك فإننا نحاول بهذا المبلغ المتواضع جداً أن نوفر بعض المراجع المهمة مثالاً على ما يستطيع أن يقوم به هذا المركز إذا ما أتيحت له الإمكانات المادية المناسبة، علماً أن كل إصداراتنا الجديدة أخرجت بالأسلوب نفسه الذي أخرج به الكتاب الأصل وطبع بالطريقة ذاتها ويباع بثمن أقل بكثير من ثمن الكتاب الأجنبي المماثل.

إن كل ما هو مطلوب لتعريب التعليم العالي في الوطن العربي هو إيمان قيادات الدول العربية بالتعريب واتخاذ قرار سياسي يقضي بتنفيذه، وبذلك يوضع حد لكل من يتكاسل ويتنصل من عملية التعريب مهما كان دافعه، ثم يلجأ إلى وضع خطة عربية لتحديد المصاعب وطرق حلها والجهات التي سيعول عليها في تذليل الصعوبات وتنفيذ الحلول وتوفير التمويل اللازم لها، وقد يكون من المناسب في هذا الصدد دعم مؤسسات التعريب القائمة حالياً وتوفير اعتمادات مالية تتناسب مع سمو الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه.

المراجع والهوامش

١ – د. عبدالكريم اليافي – مكانة اللغة العربية – مجلة التعريب العدد ١– ١٩٩١.

٢ – د. محمود السيد، إشكالية تعريب التعليم العالي، مجلة التعريب (١٢) ١٩٩٦.

٣ – د. محيي الدين صابر، قضايا الثقافة العربية المعاصر، الدار العربية للكتاب، تونس (١٩٨٢).

٤ – المصدر السابق نفسه.

٥ – المصدر السابق نفسه.

٦ – سمر روحي فيصل، مجلة شؤون عربية، العدد ٧٢، ١٩٩٢.

٧ – د. عدنان تكريتي، مجلة التعريب العدد ٤–١٩٩٢.

٨ – سعيد الأفغاني – من حاضر اللغة العربية–دار الفكر– دمشق ١٩٧١.

٩ – المصدر السابق نفسه.

١٠ – سمر روحي فيصل، مجلة شؤون عربية العدد ٧٢– ١٩٩٢.

١١ – تاريخ المجمع العلمي العربي– أحمد الفتيح– المجمع العلمي العربي– دمشق١٩٥٦.

١٢ – د. عبدالله سعيد، مجلة التعريب– العدد ١٠– ١٩٩٥.

١٣ – أحمد الزغل، تعريب العلوم بين النظرية والتجربة الميدانية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس تونس ١٩٨٧.

١٤ – أحمد دياب، تعميم خطة تعريب علم التشريح عبر سبر آراء طلبة السنة الأولى من كلية الطب، صفاقس، تجربة ميدانية ١٩٨٨.

١٥ – سليم عمار، تعريب الطب النفسي، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر – صفاقس ١٩٨٧.

١٦ – د. نجاة عبدالعزيز المطوع ود. مصباح الحاج عيسى، أثر استخدام اللغة الإنجليزية وسيلة اتصال تعليمية على التعليم الأكاديمي لكلية العلوم بجامعة الكويت، مجلة العلوم الاجتماعية بجامعة الكويت، العدد الرابع ١٩٨٦.

١٧ – د. عبدالمجيد نصير، تعريب التعليم العالي الجامعي أفكار ومقترحات– جامعة اليرموك مطبعة جامعة دمشق ١٩٨٢.

الجدول ذو الرقم (١)

تطور عدد الكتب الجامعية في جامعة دمشق (١٩٨١-١٩٩٥)

العام/ الكلية	الآداب	الحقوق	الاقتصاد	العلوم	الطب البشري	طب الأسنان	الصيدلة	الهندسة المدنية	الهندسة الميكانيكية	التربية	الشريعة	الهندسة المعمارية	الفنون الجميلة	الزراعة	المجموع
١٩٨١	٦٨	١٣	٢٩	٦٥	٤٥	٧	٥	٢٨	٣٥	٢٩	١٨	–	٣	٣٩	٣٨٤
١٩٨٢	٧٧	٢٠	٤٧	٩٩	٦١	١٣	٨	٥٦	٨٢	٤٨	١٩	–	٥	٥٦	٥٩١
١٩٨٣	٣٠	٢٠	٢٥	٥٧	٤٤	١٣	٢	٢١	٤٢	١٧	٩	–	١	٢٧	٣٠٨
١٩٨٤	٣٠	٩	١٨	٢٦	٣٧	٤	٤	٣	١٦	١٧	٨	٢	–	١٧	١٩١
١٩٨٥	٣٥	٢٣	٤٥	٤٤	٥٨	٩	١٣	٢٢	٣٤	٢٥	١٤	–	–	١٦	٣٣٨
١٩٨٦	١٢٢	٤٤	٢٨	٧٩	٦٧	١٧	١٣	٣٢	٧٨	٢٩	١٥	٦	٥	٣٧	٥٧٢
١٩٨٧	٧٢	١٤	١٢	٤٧	٣٤	١١	١٤	٢٢	٥٨	١١	٢٣	–	–	٣٢	٣٥٠
١٩٨٨	١٨٥	٣٣	٢٩	٧٧	٥٢	١٣	٩	٣٤	٤٩	٣٦	١٧	٥	٨	٣٧	٥٨٤
١٩٨٩	١٠٨	١٦	١٣	٤٣	٤٠	١٢	١٦	٣١	٤٢	١٥	٢٢	٣	١	٢٣	٣٨٥
١٩٩٠	٧٧	٢٦	٣٣	٧٣	٥١	٩	١٢	٢٢	٤٩	٢٤	٢١	–	٣	٢٨	٤٢٨
١٩٩١	٧٩	٢٣	٢٤	٣٩	٢٨	٨	٥	١٩	٤٥	١٥	١٨	–	–	٣٥	٣٣٨
١٩٩٢	٨٧	٢٥	٢٩	٤٢	٣٤	٩	٩	١٢	١٥	٢٦	١٨	٢	٥	٢٣	٣٣٦
١٩٩٣	١٢٧	٢٢	٣٣	٤٩	٤٤	٢٧	١٤	١٥	٥٤	٢٨	١٦	٥	٧	٣٩	٤٨٠
١٩٩٤	٥١	١٦	٤٣	٦٠	٣٠	٨	٨	٢٢	٥٦	١٥	١٥	٣	٣	٣٥	٣٦٥
١٩٩٥	٥٠	١٥	١٦	٢٥	١٨	٩	٢	١٦	٢٩	٣	١٣	–	٤	١١	٢١١
المجموع	١١٩٨	٣١٩	٤٢٤	٨٢٥	٦٤٣	١٦٩	١٣٤	٣٥٥	٦٨٤	٣٣٨	٢٤٦	٢٦	٤٥	٤٥٥	٥٨٦١

الجدول ذو الرقم (٢)

تطور عدد الكتب الجامعية في جامعة حلب(١٩٨١-١٩٩٥)

العام/ الكلية	الزراعة	الهندسة المعمارية	العلوم	الاقتصاد	الطب البشري	الهندسة الكهربائية والإلكترونية	الهندسة الميكانيكية	الهندسة المدنية	الآداب والعلوم الإنسانية	طب الأسنان	الحقوق	الزراعة الثانية	الصيدلة	المجموع
١٩٨١	٣٤	١٣	٥٧	٢٧	٣٦	٣١	٣١	٥٢	١٦٦	٥	–	–	–	٤٥٢
١٩٨٢	٣٦	٦	٤١	٣٧	٢١	١٥	١٧	٢١	٢٢	٣	–	–	–	٢١٩
١٩٨٣	٢٠	٦	١٩	٨	١١	١٨	٨	٤	٢٣	٢	١٠	–	–	١٢٩
١٩٨٤	٧	٤	١٩	٤	٥	٥	٩	٦	٨	٣	٥	–	–	٧٥
١٩٨٥	٨	٢	١٤	١١	١٣	٨	٨	٩	٢٨	٦	٩	–	–	١١٦
١٩٨٦	١٨	١	٣٨	٩	٢١	١٢	٨	١٦	٤٦	٧	٤	–	–	١٨٠
١٩٨٧	١٠	١	٢١	١٦	٢١	١٢	١٠	١٥	٩٢	٤	٧	–	–	٢٠٩
١٩٨٨	٨	٥	٢٨	٢١	٢٠	٢٢	١٥	٢٤	٨٩	٤	١٢	–	–	٢٤٨
١٩٨٩	٩	٢	٣٠	٧	١٧	٢١	٨	١٥	٧٣	٧	١٥	–	–	٢٠٤
١٩٩٠	٣٨	٧	٣٩	١٨	٤٦	١٣	١٩	٣٢	٦٧	٥	٤٠	–	–	٣٢٤
١٩٩١	٢٢	١	٤٠	١٣	١٥	١٧	١٤	١٦	٤٦	٣	١٥	١	–	٢٠٣
١٩٩٢	٣٤	٣	٣١	٢٠	١٣	١١	١٦	١٥	٢٩	٤	١٢	١	١	١٩٠
١٩٩٣	٣٣	٨	١٩	١٢	١٧	١٣	٦	١٧	٢٧	٤	٩	١	٣	١٦٩
١٩٩٤	٣٣	٥	١٨	١٠	٢٩	٨	٧	٨	٣٥	٥	١٣	١	٦	١٧٨
١٩٩٥	٢١	٢	٩	٤١	٧	٨	٥	٣	١٢	٢	١٢	٢	–	١٢٤
المجموع	٣٣١	٦٦	٤٢٣	٢٥٤	٢٩٢	٢١٤	١٨١	٢٥٣	٧٦٣	٦٤	١٦٣	٦	١٠	٣٠٢٠

الجدول ذو الرقم (٣)

تطور عدد الكتب الجامعية في جامعة تشرين(١٩٨١-١٩٩٥)

العام/ الكلية	الزراعة	الآداب والعلوم الإنسانية	العلوم	الهندسة المدنية	الطب	الهمك	طب الأسنان	الهندسة المعمارية	الاقتصاد	الصيدلة	المجموع
٩٨١	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
٩٨٢	٣	٣١	٣٤	٢٤	١٥	–	–	–	–	–	١٠٧
٩٨٣	٣	١٨	٨	٩	٤	٤	–	–	–	–	٤٦
٩٨٤	١	–	١٥	٦	٥	١	–	–	–	–	٢٨
٩٨٥	–	–	١١	–	٤	١	١	–	–	–	١٧
٩٨٦	٢	–	٦	–	٣	–	١	–	–	–	١٢
٩٨٧	٢	–	١٠	٢	٤	٤	١	–	–	–	٢٣
٩٨٨	٣	١	٩	٢	١١	٦	٢	–	٢	–	٣٦
٩٨٩	٤	١٠	٧	١٢	١٣	٥	–	٢	٤	–	٥٧
٩٩٠	٣	–	٦	٤	٤	٥	–	١	١	–	٢٤
٩٩١	١	٦	١٥	٦	٦	٧	–	–	٢	–	٤٣
١٩٩٢	–	٢	٦	٤	٣	٢	١	–	–	–	١٨
٩٩٣	٧	١٤	٢٠	١٧	٢٣	١٣	٢	–	٧	٢	١٠٥
٩٩٤	١	١٤	٢٣	٦	١٨	٢٠	٤	–	١	٤	٩١
٩٩٥	١	١٥	٩	٥	١٢	٢٤	٤	٣	٤	١	٧٨
المجموع	٣١	١١١	١٧٩	٩٧	١٢٥	٩٢	١٦	٦	٢١	٧	٦٨٥

الجدول ذو الرقم (٤)

تطور عدد الكتب الجامعية في جامعة البعث(١٩٨١-١٩٩٥)

العام/ الكلية	الهندسة الكيماوية والبترولية	الطب البيطري	الهندسة المدنية	الهندسة المعمارية	طب الأسنان	الطب	الآداب	المجموع
١٩٨١	٣٧	٢٢	–	–	–	٤	–	٦٣
١٩٨٢	٢٠	١٧	١	–	–	٦	١	٤٥
١٩٨٣	١١	٤	١	–	–	٧	٤	٢٧
١٩٨٤	١٠	١	–	–	١	١	–	١٣
١٩٨٥	٧	١١	١	–	١	٣	١	٢٤
١٩٨٦	٨	٨	١	–	٢	٦	٣	٢٨
١٩٨٧	٢	١	–	–	–	٦	١٣	٢٢
١٩٨٨	٨	١	١	–	–	٣	١١	٢٤
١٩٨٩	–	١٤	٢	–	٢	١١	٢٣	٥٢
١٩٩٠	٦	٢٥	٤	١	١	٦	١٧	٦٠
١٩٩١	١٤	١٢	٣	٣	٣	٤	٢٦	٦٥
١١٩٢	١٢	١٨	٢	–	–	٩	٣١	٧٢
١٩٩٣	١٢	٢٢	٤	–	–	٢	١٤	٥٤
١٩٩٤	٢٢	٥	٢	١	٢	١٧	٣٥	٨٤
١٩٩٥	غير متوفر	غير متوفر	غير متوفر	غير متوفر	غير متوفر	غير متوفر	غير متوفر	غير متوفر
المجموع	١٦٩	١٦١	٢٢	٥	١٢	٨٥	١٧٩	٦٣٣

الجدول ذو الرقم (٥)

الدلائل العامة لتطور الكتاب الجامعي في القطر العربي السوري

الدلالة / الجامعة	جامعة دمشق	جامعة حلب	جامعة تشرين	جامعة البعث
١- عدد عناوين الكتب المؤلفة التي تم طبعها من عام ١٩٦٣ إلى بداية عام ١٩٨١	٩٩١	٥٨٥	٣	-
٢- عدد عناوين الكتب التي تم طبعها من عام ١٩٨١ حتى منتصف عام ١٩٩٥	٥٨٦١	٣٠٢٠	٦٨٥	٦٣٣
٣- المعدل الوسطي لعدد عناوين الكتب المقابل للعضو الواحد من الهيئة التدريسية حتى منتصف عام ١٩٩٥	٣,٥٨	٣,٥٢	٠,٩٢	١,٥٤
٤- نسبة المشاركين من أعضاء الهيئة التدريسية في تأليف الكتب الجامعية حتى منتصف عام ١٩٩٥	٪٩٠	٪٨٥	٪٦٥	٪٧٠
٥- نسبة تغطية المقررات التدريسية بكتب جامعية مؤلفة في الجامعة نفسها حتى منتصف عام ١٩٩٥	٪٩٥	٪٩٠	٪٨٠	٪٨٥
٦- المعدل الوسطي لعدد الكتب الجامعية للمقرر نفسه، في الجامعة الواحدة حتى منتصف عام ١٩٩٥	١,٢	١,١	١,٠٢	١,٠٥

المحاضرة الثانية

اللغة العربية والتعريب العلمي في الأردن
في الحاضر ونظرة إلى المستقبل، قضايا وحلول

الأستاذ الدكتور عادل أحمد جرار

أستاذ الكيمياء – كلية العلوم

الجامعة الأردنية– عمان

السبت 3 محرم 1418هـ 10 أيّار 1997م

برزت قضية تعريب التعليم العالي في الأردن منذ عدة عقود واشتد الاهتمام بها منذ أسست أقدم جامعة فيه وهي "الجامعة الأردنية" فلم ينقطع البحث في هذا الأمر طوال تلك المدة سواء أكان ذلك في المجالس والمحافل الأكاديمية داخل الجامعات أم في الندوات والمؤتمرات العلمية الكثيرة المتخصصة التي عقدت في الأردن أو خارجه. فكان بعض تلك الندوات مخصصاً للموضوع دون غيره، لكن كاد أن لا يخلو أي اجتماع أو مؤتمر في أي مجال علمي أو تكنولوجي من إدراج الموضوع على جدول أعماله أو الخوض فيه وإصدار التوصيات بشأنه، من ذلك الاجتماعات في فروع العلوم الصرف المختلفة أو العلوم التطبيقية أو الاجتماعات المهنية والنقابية كاجتماعات المهندسين والصيادلة والأطباء والزراعيين وغيرهم، كذلك لقي الموضوع اهتماماً في وسائل الإعلام من صحف وإذاعات صوتية ومرئية.

وفي عام 1976م نشأ مجمع اللغة العربية الأردني، وقد كانت نواة المجمع الأولى اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر التي أنشئت في عام 1961م استجابة لإحدى توصيات مؤتمر التعريب الأول الذي عقد مستوى عربي عام 1961 في الرباط، ومنذ أن اتخذ المجمع اسمه وسمته الحاليين فإنه دخل بقوة إلى المداولات والمناقشات المتعلقة بالتعريب، ثم اتخذت مشاركته بعد حين شكلاً أشد قوة، فتولى دفة القيادة والريادة في مجال مهم هو إعداد الكتب العلمية باللغة العربية وما يتصل بها من قوائم المصطلحات والرموز العلمية، لكن مبادرة المجمع لم تستمر طويلاً في زخمها الأول لأسباب مرتبطة في معظمها بقلة المال أو انعدام التشجيع.

أما الجامعات، فكانت في واد آخر، لا يصدر عنها أي موقف ملتزم ولا تبادر إلى أي إجراء، واستكان العاملون فيها إلى ما اختطه الأفراد القلائل الذين بدأت بهم كلية العلوم في الجامعة الأردنية، وهم كانوا يعملون بعون من بعض المستشارين الإنجليز، ولم تشهد الجامعات بعد ذلك سوى مبادرات فردية أ و حركات محدودة لجمعيات صغيرة من العلميين صمم أفرادها على أن يتخطوا نهجاً في التعريب لاقى من الصعوبات ما أحبط المساعي في معظم الأحيان، لكن لم يكتس أي من هذه المبادرات بالصفة الرسمية إلا نادراً وعلى استيحاء.

لذلك كان من حظ قضية التعريب في هذه العقود القليلة الماضية أن تكون بين مد وجزر، فكان إقرارها التعريب العلمي يبدو أحياناً قريب المنال، وقد يشهد تطبيقاً محدوداً لفترة قصيرة، ثم ما يلبث أن يتراجع، وكان التركيز دائماً ينصب على تعداد المصاعب وإبرازها دون أن يقوم المتراجعون بجهد حقيقي لتذليلها، وكان من شأن ذلك أن تتخذ أحياناً بعض القرارات المناهضة للعملية لا تلاقي مقاومة حقيقة، لأن معظم العاملين العلميين كانوا لا يبالون بذلك، أو لا يستطيعون شيئاً حياله، ومنذ ما يزيد على عشرة أعوام خيم الهدوء على القضية واستكان الجميع كما يبدو للواقع، وربما كان الوضع العام المتدهور للتعليم الجامعي والضائقة المالية التي تعاني منها الجامعات أكبر الهموم التي تشغل معظم الناس عن أي مبادرات جديدة للتعريب.

وقد شاء مجمع اللغة العربية أن يعهد لي بالتحدث أمامكم عن واقع التعريب في التعليم العالي في الأردن وأن أحاول عرض واقعه وأن أشارككم في مد البصر في مستقبله، وربما كان ذلك لأنني كنت خلال هذه العقود الماضية مشاركاً إلى حد ما في دحرجة عجلته إلى الأمام حيناً وكانت تلك العجلة تمر فوق قدمي راجعة حيناً آخر فأعاني من آلام ذلك التراجع.

وأذكر أني اقترحت منذ حوالي عشرين عاماً تأسيس هيئة للتعريب والترجمة والنشر في حضن الجامعة الأردنية، وأن يتم إمدادها بالأموال والوسائل التكنولوجية المعينة على النجاح، وشهدت الجامعة الأردنية في منتصف السبعينيات نوعاً من التعاطف مع فكرة التعريب، فظهرت لجنة من أساتذة كلية العلوم والآداب للقيام بدراسة الأمر، وشاركت في هذه اللجنة التي وضعت مشروعاً متكاملاً للهيئة المقترحة، وقد تلقته رئاسة الجامعة في حينه ولم يخرج منها بأي نبت أو ثمرة، ولابد أنه يقبع حتى الآن في أحد الملفات في رئاسة الجامعة.

وفي النصف الثاني من السبعينيات بدأ مجمع اللغة العربية في ترجمة عدد من الكتب العلمية المقررة في دوائر العلوم الصرف في الجامعة الأردنية، وجند لها نفراً من أعضاء هيئة التدريس، الذين انتظموا في لجان شاركت في إحداها، وكان لكل لجنة منسق ومراجع، كما كان لكل كتاب مراجع عام علمي وآخر لغوي، وقد وصفت هذه التجربة بالتفصيل مع قائمة الكتب المترجمة (وتضم ثلاثة عشر كتاباً) في كتاب

اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث". كذلك ظهرت تلك التفاصيل في تقرير خاص صادر عن المجمع، وجرى تعميمه داخل الأردن وخارجه، وعرفت الجامعات العربية في الخارج بهذه الكتب واستفاد منها الكثيرون، ولا شك في أن تأثيرها خارج الأردن كان أكبر كثيراً من تأثيرها داخله لإحجام الجامعات الأردنية بما في ذلك من شاركوا في الترجمة عن استعمالها، وهذه الملاحظة العابرة عن تأثير التجربة الأردنية خارج نطاق الأردن تدفعني إلى أن أجعل هذا الحديث عاماً يتناول قضية التعريب، وعلاقتها بالوضع العلمي العام في دنيا العرب.

وقد رافقت المبادرات الفردية أو الجماعية الضيقة التي أشرت إليها قبلاً نشاطات في الترجمة والتأليف رغم ما يرافق نشير الكتب من صعوبات فنية وعقبات مالية، فقد بدأت الأبواب تتفتح قليلاً حين طرقها أصحاب الشأن، فجاء بعض العون من مؤسسات مثل مجمع اللغة العربية ومؤسسة عبد الحميد شومان، ثم بعد ذلك دور النشر الخاصة، وأذكر أنني أرسلت في عام 1980 رسالة إلى مؤسسة جون وايلي في نيويورك وهي من أكبر دور النشر العالمية، وأبديت رغبتي في ترجمة كتاب لهم في الكيمياء العضوية يفوق ألف صفحة، وبعد دراسة وتمحيص داما حوالي ستة أشهر وافقت الشركة على ذلك وأمدتني بالمال والوسائل الفنية حيث أعدوا الرسوم في مكاتبهم في نيويورك، وتولوا إخراج المخطوط، فكانوا يرسلون في مكاتبهم في نيويورك، وتولوا إخراج المخطوطة، فكانوا يرسلون لي تجارب المطبعة من نيويورك وأعيدها لهم هناك. وكانت مراجعة واحدة تكفي لدقتهم العالية، وظهر الكتاب عام 1983م في أجود ما يمكن طباعةً وإخراجاً حتى أنهم حرصوا على أن تتقابل كل صفحة في النسخة العربية مع مقابلتها الإنجليزية ما أمكن، وما زال هذا الكتاب منذ ذلك الوقت مستخدماً في كثير من الجامعات وتعاد طباعته، ونشرت لي الشركة نفسها كتاباً مؤلفاً أعددته بناء على طلبها وهو ما زال أيضاً كثير الرواج. المهم في هذا الأمر أن هذا التحرك من جانبي كان أقوى دافع لأن تقوم مؤسسة جون وايلي بإنشاء مشروع خاص للكتب العربية أسمته الكتاب العربية " Wiley Arab book" وعاش ردحاً من الزمن ونشرت عبره العشرات من الكتب لمؤلفين ومترجمين من الأردن وغيره قبل أن يضعف، وحذت شركات النشر المحلية حذو شركة وايلي وساعدت في نشر كثير من الكتب العلمية، وصارت هي المبادرة أحياناً بطلب الكتب من المؤلفين،

وحظيت أنا نفسي من ذلك بالكثير، مما ساعدني على أن أضع ما ينوف على ثلاثين كتاباً شاركني في بعضها آخرون، منها ما تناول بعض الجوانب المتخصصة في الكيمياء، وكتباً أخرى في العلوم الميسرة للجميع وفي التكنولوجيا، وصار بوسعي أن أمارس التعليم باللغة العربية مستعملاً ما أعددت من كتب، وهو ما أقوم منذ أكثر من اثني عشر عاماً.

لكن الجهود الفردية لا يمكن أن تكون بديلاً للعمل المؤسسي حتى لو لاقت الدعم من دور النشر الباحثة عن الربح، لأنها تتردد كثيراً في إعادة طبع الكتاب أو تجديده وتحسينه أو حتى استبدال كتاب آخر به، واستعمال كتاب واحد لمدة طويلة وعدم وجود فرص لاستعمال غيره من الأمور المحبطة لعملية التعريب، فأبسط ما يمكن أن يقال إن ذلك الكتاب صار بالياً ومعلوماته قديمة، واستعماله للدراسة نوع من الجمود، وأذكر في هذا الصدد أنه ترجم كتاب في الكيمياء العضوية في مصر في الستينيات والأهم من مواد ذلك العلم، وإذا كان لقضية التعريب أن تستند إلى قاعدة صلبة وأن لا تتهاوى بعد نهضتها، فجيب الحذر الشديد من الوقوع في هذا المأزق.

في العام الدراسية 1980–1981 شرعت أقسام كلية العلوم في الجامعة الأردنية في استعمال كتب الأحياء والرياضيات والجيولوجيا التي ترجمها مجمع اللغة العربية، وشملت هذه المبادرة 1302 من الطلاب، كما قام قسم الرياضيات في جامعة اليرموك باستعمال كتاب الرياضيات لتدريس 300 طالب، وكان توزيع طلاب الجامعة الأردنية كما يلي: 650 طالباً في قسم الأحياء و 600 طالباً في قسم الرياضيات و 52 طالباً في قسم الجيولوجيا، وفي نهاية ذلك العام استفتي الطلاب ومدرسوهم وأعضاء الهيئة التدريسية الآخرون والمترجمون حول العلمية، ومع أن الاستفتاء لم يشمل جميع هؤلاء الطلاب (أقل من النصف)، إلا أنه أسفر عن النتائج التالية:

١ – تراوحت نسبة رضى الطلاب عن الكتب المترجمة بين 60–80% حسب الكتاب، وكانت النسبة 70% في جامعة اليرموك.

٢ – تقاربت نسبة الراضين عن الكتب بين المترجمين (83%) مع تلك النسبة بين المدرسين (77%).

٣ – اتفق معظم المترجمين والمدرسين الآخرين على تقدير دور مجمع اللغة العربية.

٤ – رأى حوالي 75% من الطلاب المشاركين في الاستفتاء أن تستمر ترجمة الكتب اللازمة للسنوات اللاحقة.

لكن هذه المبادرة لم تعش إلا عامها ذاك، فعادت أقسام كلية العلوم لتمارس نهجها السابق في استعمال الكتب الإنجليزية.

وإذا نظرنا إلى تجربة مجمع اللغة العربية الأردني وما رافقها أو انبثق عنها بهدف التقييم نصل إلى الاستنتاج بأن أي جهد للتعريب يجب أن يكون مؤسسياً بالدرجة الأولى، وأن تكون للمؤسسة التي تتولاه قوة تنفيذية، ومقدرة مالية وأخرى فنية لكي، تضمن عدم تجاهل منتجاتها ما دامت تأتي في مستوى جيد متجدد مساير لروح العصر، وهذا ما صار من المألوف أن يعبر عنه بالقرار السياسي، وإن كانت القرارات السياسية تتهاوى أحياناً إذا لمرافقها ما يلزم لتنفيذها من وسائل.

موجبات تعريب التعليم العلمي

هناك الكثير من الأسباب التي تفرض علينا التعريب وتجعله قضية مصير، صارت مما تلهج به ألسن المناصرين أو حتى الذين لا يبالون كثيراً بالأمر، فهم مع التعريب إن طولبوا به، لكنهم لا يعملون شيئاً بشأنه، ومن هذه الأسباب ما يلي:

١ – اللغة العربية لصيقة بنا منذ الطفولة، وتظل كذلك حتى النفس الأخير، فهي اللغة الأم، وتعلقنا بها أمر بديهي لا يجب أن يكون موضع مناقشة.

٢ – ليست اللغة وسيلة للنطق والتعبير فقط، بل هي وسيلة التفكير قبل ذلك، ولا يمكن أن يستقيم التفكير ويصل إلى الاكتمال إلا إذا استوعبته لغة صاحبه، لذلك فإن تعريب العلوم مقدمة لتأصيل التفكير إذ يستند عندئذ إلى قاعدة اللغة الأم الأصلب.

٣ – حين يقرأ أي شخص كتاباً بلغته يكون جهده محصوراً في فهم ما تنقله العبارة من معان، أما قراءة كتاب بلغة غيرها فإنها تشتت الجهد حيث ينصرف جزء منه إلى فهم الألفاظ والتراكيب قبل أن يصل القارئ إلى

محاولة فهم المعنى، وإذا اختلت المهمة الأولى خرج القارئ بمعنى ناقص أو لم يخرج بشيء، وتتفق كل نظريات التعليم على أن التمثل الصحيح للمعطيات متطلب ضرورية للإبداع والابتكار ، ومن البديهي أن الوصول إلى ذلك أيسر باستعمال اللغة الأُم.

٤ – ليست الجامعات أماكن للتفكير المترف، إذ إن هدفها الأساسي هو خدمة المجتمع، وهذا صدق في كل بلد، انظر إلى الصهيونيين الأوائل الذين كانوا يخططون للاستيلاء على فلسطين، فقد كان من أوائل مساعيهم إنشاء الجامعة العبرية في القدس وترسيخها حتى قبل أن يتراءى لهم بصيص من الأمل في تحقيق حلمهم الأكبر وهو إنشاء الدولة.

ولا يمكن للمؤسسا ت العلمية العربية أن تحقق أهدافها إلا إذا كانت مرتبطة مع مجتمعاتها بجسر اللغة، فهي الوسيلة الوحيدة لربط المتعلمين والمتخصصين من جهة مع أفراد المجتمع الآخرين من جهة أخرى. ولا يمكن أن يكون هذا الجسر لغة أجنبية.

ويتجلى هذا على أشده في موضوع نشر الثقافة العلمية بين الجماهير، وهو أمر في مثل إلحاح الترقي إلى مستويات عالية في العلوم والتكنولوجيا بالدرس والبحث، فالثقافة العلمية الجماهيرية ضرورة تمليها حالة مجتمعاتنا التي خيم عليها التخلف، حتى إن قسماً كبيراً من الجمهور ينصت بتسليم لمن يناصب العلم العداء.

فإذا اقتنعنا بضرورة الثقافة العلمية الجماهيرية التي تخلق الأجواء الصحيحة للعلم والتكنولوجيا، فلا بد من أن نكتب بالعربية علماً ميسراً يستطيع الأفراد العاديون استيعابه، ما دام من يكتبون في هذه المجالات سيأتون من خريجي الجامعات وجب أن يتلقوا دروسهم بالعربية، فلا مجال لأن يكتبوا لهذه الجماهير بلغة أجنبية.

٥ – لا يخلو أي بلد عربي مما صار "يدعى خطط التنمية"، ومثل هذه الخطط تفترض تعاوناً بين العلميين وذوي الاختصاص العالي، ومن يلونهم في طبقة وسطى تصلهم مع فئات العمال في مجالات التنمية، ووسيلة الاتصال الوحدوية بين هذه الفئات هي اللغة العربية.

٦ – أكثر اللغات الأجنبية انتشاراً في الجامعات العربية هي الإنجليزية، مع أن هناك شطراً لا بأس به يستخدم اللغة الفرنسية، فإذا فرضنا أن من تخرجوا

من بلاد ناطقة بالإنجليزية يتقنون هذه اللغة، وهو أمر غير مؤكد، فما حال من تلقوا تعليمهم العالي في بلاد أخرى، وهم كثيرون؛ لأن كل هؤلاء لا يعجزهم أن يدرسوا بالعربية.

٧ – في ظل الاحتلال اليهودي لفلسطين ذكر أنه قد تسلل إلى دنيا الفنيين والصناع في المناطق المحتلة كثير من المصطلحات العبرية التي تخص العلوم والفنون التكنولوجية، وللتصدي لمثل هذا قبل أن يستشري وينتقل إلى البلاد العربية الأخرى في ظل الواقع السياسي الحالي، لا بد من وضع الأمور في نصابها، ولا بد من تعريب التعليم العلمي الجامعي بفرعيه الأساسي والتطبيقي.

لقد كان المنطلق في سرد موجبات التعريب أن تطبيق التعريب ونجاحه أمران ممكنان، وعناصر هذا المنطلق هي في بعض جوانبها من أقوى الموجبات، لكن لا شك في أن التعريب مهمة تتطلب التغلب على بعض العقبات والمشكلات، لكنها مما يسهل تذليله وعند ذلك تؤتي العملية الثمار الطيبة، ولنا في تجارب البلاد التي تدرس العلوم بلغاتها فيض من الأدلة على ذلك، ونضيف إليه بعض التجارب الناجحة في العالم العربي كتجربة سورية التي كانت تعريب التعليم العالي فيها متواصلاً منذ عهود الاستقلال الأولى عدا حالات قليلة، كما أن هناك تجارب فردية لا بأس بذكر بعضها. فقد دأبت منذ أكثر من عشر سنوات على التدريس باللغة العربية في جو من المناهضة والمقاومة من نفر ممن حولي، وتشهد بنجاح التجربة نتائج استفتاء الطلاب حولها وهي نتائج أبلغت في حينها إلى المسؤولين، وقد كان في الوسع دائماً أن يوسع ميدان الدراسة إلى أكثر مما كان يحدث عند استعمال الإنجليزية، كما أن نتائج الطلاب كانت أفضل بشكل بارز.

وقد أشارت تجربة التدريس بالعربية في أول عقد الثمانينات في بعض أقسام كلية العلوم في الجامعة الأردنية وفي جامعة اليرموك إلى نتائج مشابهة.

وقد كانت للعربية تجربة سابقة ناجحة في مجال العلوم والفلسفة، حين كان العالم الإسلامي يحفل بمنارات العلم والمعرفة، وقد كتب ودرس بالعربية من علمائه من كانوا من أصل عربي أو من اصل غير عربي، بعد أن صارت العربية لغتهم ولغة من

يخاطبونهم من تلامذة وتابعين، ومن نجاح هذا الأسلوب في السابق نستمد الثقة بنجاحه اليوم، وحين اقتبس الغرب علوم العرب والمسلمين لم يتعلم العربية إلا ليترجم منها، وأخذ يدرس العلم ويكتبه بلغته السائدة آنذاك.

وفي عصرنا الحاضر يكاد لا يوجد من الأقوام من يعلم العلوم بلغة غير لغته إلا نحن، وهذه بلاد مثل فنلندا واليونان وبلغاريا وأسبانيا وتركيا والصين واليابان تعلم بلغاتها، ولا يستطيع مدع أن يقول إن ذلك أدى باليابان إلى التخلف العلمي، وأن تمسكنا بالتعليم بالإنجليزية أو الفرنسية أوصلنا إلى ذرى العلم، وهذه إسرائيل إلى جوارنا بعثت العبرية من ركودها وجعلتها أداة للتدريس العلمي، ليس لمجرد الفخر والتعصب، بل لأن المخططين هناك يعرفون أن اليهود حيثما كانوا لم يتخلوا عن تعلم العبرية، ولذلك فهي اللغة التي بها يفهمون، ومن ألجأته ظروفه إلى الابتعاد عن العبرية وجد أن عليه أن يعود إليها، كما يفعل العالم اليهودي المهاجر من أمريكا ليعمل في إحدى الجامعات الإسرائيلية، فأول ما يفعله هو تعلم العبرية من جديد.

ونذكر في هذا المجال أيضاً حالة اليابان الخاصة، وهو البلد الرائد في عصرنا الحاضر في مجالات العلم والتكنولوجيا، فيذكر مؤرخو النهضات المعاصرة أن اليابان بدأت بالانفتاح على العالم الخارجي في أواخر القرن الماضي في الوقت الذين بدأت فيه مصر مثل هذا الانطلاق. اليابان كانت خلال كل هذه المدة السابقة شديدة التمسك بلغتها ومصر كانت تتذبذب بين التمسك بها وهجرها في ميادين العلم، فأي النهجين أهدى سبيلا؟ واليابانيون بصلاتهم التجارية والعلمية الهائلة مع العالم الخارجي يدركون أن ذلك العالم يجد صعوبة لا تُنكر في الإطلاع على ما لديهم إن كان باللغة اليابانية، لذلك وجدناهم يصبون الأموال والجهود الهائلة في الآونة الأخيرة، لتطوير الآلات الذكية التي تستطيع أن تترجم من اليابانية إلى أي لغة يريدها الأجنبي ليصل إلى ما أرادوه أن يعرفه سواء أكان ذلك معلومات علمية أم تجارية، وقد قطعوا في ذلك أشواطاً واسعة.

واقع التخلف العلمي العربي

لا شك في أن المجتمعات العربية في أمس الحاجة إلى سلوك السبيل العلمي على جبهة عريضة، كما أن عليها أن تقفز قفزات واسعة تتجاوز بها ما سمي بعهد الصناعة لتصل مع الأمم الراقية إلى ما سمى عهد ما بعد الصناعة، فليس لديها من الوقت ما يسمح بالتراخي، فأين نحن من تحقيق هذه الحاجات الملحة؟

لم يشهد التاريخ البشري فترة كالعصر الحالي المتفجر بقوة التكنولوجيا ودور العلم القيادي، ما نجم عن ذلك من المنجزات الباهرة في ميادين مختلفة كالصحة والثروة القومية والقوة الذاتية لأي بلد مسته هذا العصا السحرية، وقد انعكس ذلك في صور عديدة كالتحرر النسبي لأبناء هذه المجتمعات من أخطار الأوبئة والأمراض، ومن العناء الشديد في سبيل الرزق، وكتوفير أسباب كثيرة للعيش الهاني والسعادة. ولا ينكر أنه كانت لهذه التكنولوجيا وما نجم عنها مظاهر سلبية، لكن معالجة هذه المظاهر كانت من صلب العلم والتكنولوجيا، وأي دارس للموضوع سيجد أن دعم العلم والتكنولوجيا صار نمطاً راسخاً تقوم به الحكومات والمؤسسات الخاصة لأنها ترى فيه أفضل أنواع الاستثمار.

لكن العالم العربي والعالم الإسلامي، والعالم النامي الذي يضمهما بعيدة عن ذلك كله، فهنا تسود حالة من التخلف الواضح في ميدان العلم والتكنولوجيا لا تنفع في تغطيتها كل الأقوال التي تصدر عن المسؤولين حول تشجيع العلم، ولا كل الخطط التي تعد لإصلاح هذه الأوضاع.

وتشير الوقائع التالية إلى حقيقة هذه الحالة من التخلف:

١ تذكر إحصاءات الأمم المتحدة أن النصيب الأعلى من ميزانيات البحث والتطوير في العقد الماضي (97%) كانت في بلاد الشمال المتقدمة، أما البلاد العربية فكانت نسبتها من ذلك 0.5% وهي نسبة مقاربة لنسبة أقطار أفريقيا.

٢ عدد العلماء والمهندسين العاملين في البحث والتطوير يدل على التفاوت المشار إليه بصورة واضحة؟

عدد العلماء والمهندسين العاملين في البحث والتطوير لكل مليون من السكان

أميركا الشمالية 2500 (في الولايات المتحدة 2800)

أوروبة 1500

أسترالية 1000

أميركيا اللاتينية، معظم أسيا أقل من 500

أفريقية والبلاد العربية (أفريقية 50 تقريباً)

3- ما سجل من براءات الاختراع عام 1980 مثلاً اشتمل على نصيب لا يتجاوز 6% لجميع بلاد العالم النامي، لكن التدقيق بين أن معظم ذلك جاء من فروع المؤسسات المتعددة الجنسيات أو من مواطنين من العالم المتقدم.

4- نجد في كتابات البروفيسور محمد عبدالسلام العالم الباكستاني الذي توفاه الله مؤخراً وقائع عجيبة، فهو يذكر أن مجموع ما خططت لإعداده كل أقطار العالم الإسلامي من الباحثين في مستهل التسعينات كان أقل مما خططت لإعداده إسرائيل بمفردها، ويذكر أيضاً فشله في دفع رؤساء دول العالم الإسلامي في مؤتمرهم عام 1973م لإنشاء مؤسسة إسلامية للعلوم على غرار مؤسسة روكلفر. فبعد أن تنادوا للتبرع وصل المبلغ الملتزم به ألف مليون دولار، لكن معظمهم تناسى الأمر، فهو يذكر في عام 1985م حين عاد للموضوع أن ما دفع لم يزد عن مليون دولار، وبالطبع تهاوت الفكرة كلها، وقد اتسمت أقواله الأخيرة بحزن ويأس لأنه قال عندئذ إن العالم الإسلامي لم تعد تكفيه مؤسسة من هذا النوع بل هو بحاجة إلى عشرات منها أو أكثر، فلا عجب أن هذا العالم الفذ كان يعمل في إحدى البلاد الأوروبية.

ومع أن العالم العربي يعج بالجامعات، كما يوجد عدد غير قليل من مراكز البحث العلمي، إلا أن ما فيه من بحث علمي هو في الغالب امتداد للعلم في البلاد المتقدمة، نشأ بانتقال المتدربين بعد أن حصلوا على شهاداتهم العليا إلى الجامعات العربية، حيث واصل كل منهم خطاً بحثياً كان قد بدأه بإشراف واحد من العلماء في القطر الذي درس فيه، ويختلف حظ الباحث من الإجادة والإتقان حسب قدرته على الاتصال بمشرفه السابق أو العودة إليه بين حين وآخرن، أما الانقطاع عن مراكز البحث الأجنبية هذه فإنه جاء على الأرجح، بأنواع من البحث والدراسات ذات المستوى المتدني، ولا تؤثر في تيار العلم العالمي.

وتتبدى لنا بعض أسباب التخلف العلمي العربي إذا استعرضنا بعض المظاهر السائدة في بعض جوانب التعليم العالي والصناعة والزراعة في البلاد العربية، ونجملها في ما يلي:

1- انخفاض الإنفاق الرسمي على الجوانب العلمية، التعليمية والبحثية، وضمن هذا نجد عدداً من المظاهر:

أ- تدني الدخل الذي يحصل عليه العاملون في المجال العلمي.

ب- تدنى التجهيزات العلمية للتدريس والبحث سواء أكان ذلك يتعلق بعددها أم بمستواها.

ج- الواجبات التدريسية العالية للعاملين في الجامعات.

وكل هذه أسباب تؤدي إلى نتيجة واحدة هي انخفاض مستوى البحث كماً وكيفاً.

2- الضعف العام للصناعات، فهي في معظمها من الصناعات التحويلية أو المستعارة التي تقتبس نمطاً صناعياً محدداً من بلد المنشأ، فلا تترك مجالاً للتغيير، بل إنها لا تسعى إليه؛ لذلك فهي لا تتفق على البحث العلمي داخل المؤسسة، ولا تمنح للعلماء مالاً كما هو الحال في المؤسسات الصناعية في العالم المتقدم، فهناك نجد مجالات التعايش المشترك بين الصناعة والجامعات قائمة على نطاق واسع.

3- لا يختلف حال الزراعة كثيراً، فهي تستعير بعض تكنولوجيا الزراعة الحديثة، لكنها ما تزال مقصرة في المجال البحثي وفي المجال الإنتاجي، ويدل على ذلك أن مستوردات العالم العربي الغذائية تقدر بما يناهز مائة مليون دولار في اليوم.

1- التخبّط في التعليم الجامعي، ومظاهره كثيرة منها:

أ- عدم ارتباطه بحاجات المجتمع من زراعية وصناعة وصحة وعمران وغيرها، وهذا الارتباط لا يأتي من فراغ، فهو يمكن أن يوجد فقط إذا كانت المؤسسات العلمية قد وصلت إلى مرحلة جيدة في المستوى التعليمي أو البحث الأساسي ومهر أفرادها في طرق البحث، وإذا مدت هيئات المجتمع ومؤسساته الاقتصادية يدها بالعون على البحث والتطوير.

ب- كثرة الأعداد في الجامعات وإطلاق القبول بحيث صار كل من ينهي المرحلة الثانوية يجد طريقة إلى جامعة، ومعنى هذا أن التعليم الجامعي لم يعد لنخبة مختارة لديها المؤهلات العقلية التي تناسب هذا النشاط، وصار مستوى هذا التعليم يعد ويحول تبعاً لمستوى المتوسطين أو حتى الضعفاء، فناله التدني المستمر.

ج- استعمال اللغات الأجنبية في التعليم العلمي العالي للعلوم الطبيعية وما ينبثق عنها من العلوم التطبيقية، وهو الجانب الذي نبحث فيه هنا.

وهذه المظاهر مترابطة يساند بعضها بعضاً، فاستعمال لغة غير العربية يؤثر سلباً على الطلاب الذين يقبلون في الجامعات، ويتفاقم الأمر بسبب التدني المستمر في مستواهم العام.

ولا ينتظر هذه الأحوال السائدة في التعليم الجامعي أن تجعله مكاناً لتفريخ العلماء والباحثين، وأي إصلاح يجب أن ينظر في سد كل الثغرات التي ذكرت ومنها بالطبع مسألة لغة التعليم.

وقد ينبري مناهضو التعريب إلى القول بأننا إن أردنا اللحاق بالأمم المتقدمة يجب أن نتبع نهجهم بما في ذلك استعمال اللغة الإنجليزية مثلاً لأنها أوسع اللغات العلمية انتشاراً، لكن هذه تعمية يتوجب علينا كشفها بذكر النتائج المترتبة على هذا الأسلوب وهي نتائج لم يحاول هذا الفريق أن يدرسها على نحو علمي دقيق.

النتائج السيئة للتأخر في التعريب

هل نحن على وعي بنتائج استمرارنا في إقصاء اللغة العربية عن ميدان التعليم الجامعي الأولى؟ ما من شك في أن هناك كثيراً من النتائج السيئة فبالإضافة للإساءة للغة العربية وامتهانها يمكن أن نذكر ما يلي:

1- استعمال لغة إنجليزية مشوهة في أغلب الأحيان، وأكاد أقول في كل الأحيان، لأن المدرسين القلائل الذين يتقنون اللغة الإنجليزية سيتنازلون عن التحدث بها شيئاً فشيئاً حين يجدون سداً بينهم وبين المتلقين.

2- عدم استيعاب الطلاب لما يلقى عليهم من المعلومات.

3- انصراف معظم الطلاب عن الهدف الأساسي وهو الاستيعاب إلى التعارك مع لغة الكتب الإنجليزية التي صار معظمها يلجأ إلى الغريب، ليبرز ميزة تجعله مفضلاً على غيره من الكتب الكثيرة التي تتناول الموضوع نفسه.

4- هناك أيضاً الحرج والمأزق الذي يقع فيه من تخرج من جامعة غير إنجليزية، فمحصوله من اللغة الإنجليزية لا يزيد كثيراً عن ما لدى طلابه.

وسأمر باختصار على بعض الأمثلة التي أعدها أعراضاً لهذا الداء الذي أصبنا به في محاولاتنا للتعلم والتعليم، فقد أصبحت الكتب العلمية الأجنبية المتداولة تتوخى التراكيب الدقيقة والألفاظ الغريبة أحياناً لتأكيد المعنى، وهو أمر مألوف لدى الكتَّاب في أي لغة، ومن لم يكن متمكناً من اللغة الأجنبية لا يستقيم له المعنى حتى لو رجع إلى المعجم، وقد مرت بي أمثلة لذلك حين كنا نجند المترجمين لبعض كتب الكيمياء التي نشرها مجمع اللغة العربية، فقد قرأ أحدهم عبارة عجز عن فهم ما قصده المؤلف منها وهي:

The neophytes in chemistry classes…

فهو يتحدث عن الطلاب المستجدين ويشبههم بالغراس الجديدة أو الشتلات (neophytes) من باب التفنن اللغوي.

وقام آخر باستعمال المعجم ليترجم العبارة التالية حرفياً:

In retrospection we realize that…

فجاءت ترجمته "ندرك بمنظار الرؤية الراجعة أن الأمر..".

أما المؤلف فكان يقصد الإدراك المرتبط بالرجوع إلى ما سبق قوله عن الأمر، أو ما يتبين باستعراض ماضي القضية التي يجري بحثها.

فما بالك إذا كان من يطلع على هذه النصوص طالباً محصوله في اللغة الإنجليزية ضعيف جداً؟ هنا نجد أن الطالب يحار حتى لو كان فهم التعبير لا يتطلب محصولاً لغوياً عالياً.

فمنذ عقدين تقريباً كنت أدرس الكيمياء العامة بالإنجليزية لمجموعة من الطلاب المبتدئين في الجامعة، وأذكر أنني شرحت لهم مبدأ السالبية

(Electronegativity) وذكرت أن الفلور هو أعلى العناصر سالبية. وبعد ذلك في أحد الأسئلة عبارة هي:

The small electronegative fluorine atom…

ورفع أحاد الطلاب يده، ولما استفسرت عن سؤاله قال: ألم تقل لنا أن للفلور أعلى قيمة للسالبية، أليس ذلك متناقضاً مع ما في هذا السؤال ؟ ويتبين أن الطالب قد قرن كلمة small بصفة السالبية، بينما هي في السؤال تشير إلى صفة أخرى لذرة الفلور، فهي صغيرة الحجم.

ولا ننسى أن الطلاب الذين كانوا يلتحقون بالجامعة قبل عشرين سنة كانوا أكثر مهارة من طلاب اليوم في اللغة الإنجليزية وفي غيرها، فلا يختلف اثنان في أن مستوى في المرحلة قبل الجامعية انحط في جميع نواحيه، بما ابتلي به من إمكانات مادية هابطة ومعلمين محبطين مادياً ومعنوياً.

والتعليم باللغة الأجنبية يعيق الدارس مهما كانت مرحلته الدراسية وتتمثل هذه الإعاقة في الجوانب التالية:

١ –لا يفهم جيداً ما يسمع من شرح.

٢ –لا يفهم ما يقرأ فهماً جيداً.

٣ –لا يجيد التعبير عن نفسه بالكلام.

٤ –لا يجيد التعبير عن نفسه بالكتابة.

إذا قرأ أو تكلم أو كتب فإنه يفعل ذلك ببطء ويستغرق وقتاً طويلاً، فلا يؤدي واجباته الدراسية على وجه جيد.

وقد أدرك مدرسو العلوم الطبيعية والتطبيقية في الجامعة الأردنية مثلاً جوانب الإعاقة هذه منذ سنين، لذلك تجد أن محاضراتهم هي بالعربية (العامية في الغالب) مع اختلاطها بالكلمات الإنجليزية، فنرى أل التعريب تدخل على كلمة لم تعرب أو كلمة لم تترجم، ولكن مع إقرارهم هذا بعجز الطلاب عن المتابعة، فإنهم ما زالوا مصرين على أن يستعمل الطالب كتاباً إنجليزياً، فتتفاقم المشكلة لديه كما ذكرنا، لأنه يسمع شرحاً بالعربية ويجاهد ليتابع النص الأجنبي؛ لذلك وجد الكثيرون منهم أن من

الضروري أن يزودوه بقائمة بالمعاني لكلمات هي في غالبها من غير المصطلحات العلمية كما أن معناها السياقي قد لا يتم التوصل إليه تماماً من المعنى القاموسي، وتطور هذا الأمر أحياناً من مجرد ورقات توزع بين حين وآخر إلى كتيب مجلد يباع للطالب.

ولو تقصينا الأمر لوجدنا مثل هذا الوضع في الجامعات العربية الأخرى التي تصر على استعمال اللغة الأجنبية.

وإذا كان تعليم العلوم والتكنولوجيا الحديثة هو وسيلتنا لانتشال الأمة العربية من الواقع المتخلف علمياً واقتصادياً، فإن أي تأخير في تعميم التعريب في الجامعات سيجعل التعلق بهذه الوسيلة أبعد منالاً يوماً بعد يوم، وسيبقينا في مستنقع التخلف لا نزيد على أن نكون تابعين للأقوام المتقدمة التي بدأت تضع أقدامها في عالم المعرفة الواسع في القرن الحادي والعشرين، ذلك إننا إن بدأنا اليوم فهمتنا هي تعريب الكتاب والمحاضرة وهي مهمة واسعة شاقة لا ريب، لكنها تبدو صغيرة بالمقارنة مع ما يليها، وقد يكون نجاحنا فيها محطة انطلاق لتعريب البحوث وشبكات المعرفة الإلكترونية التي تخزن المعلومات العلمية، وهي مهمة لا بد منها في مراحل لاحقة، أما حين تصبح المهام هذه كلها واجبة التنفيذ في وقت واحد فقد تكون ضخامتها مما يحجم عنه حتى المتحمسون المجهزين بالمال والوسائل، ولننظر في واقع العالم المتقدم اليوم، فعلى سبيل المثال ترتبط ثلاثة آلاف مدرسة في ألمانيا اليوم بشبكة الحاسوب الدولية (انترنيت Internet) ونحن في الأردن ما زلنا نطمع في أن نربط إحدى الجامعات بهذه الشبكة، كذلك فقد أصبح البريد الإلكتروني أمراً مسلماً به في مكتب كل أستاذ في جامعة أمريكيا، ولماذا لا نقول في أي جامعة؟ فقد زارنا حديثاً أستاذ في جامعة ماليزية وتتحدث عن البريد الإلكتروني لديه ولدى كل عضو من زملائه.

وفي مجابهة هذه النتائج السيئة التي تلقي بظلالها على عملية التعليم العالي، نعود إلى وضعنا المحلي قليلاً، فمع أن حركة التعريب في الأردن شاهدت بعض البدايات الجيدة التي لم يكتب لها الاستمرار أو التطور مثل التجارب التي بدأت في بعض أقسام كلية العلوم في الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، إلا أن الدعم الرسمي لهذه التجارب ولما قد يبدأ في المستقبل، مفقود تماماً.

فقد تعاقب على رئاسة أولى الجامعات في الأردن نفر ممن كان يرجى أن يقوموا بمبادرات تشجيعية أو داعمة، لكنهم لم يفعلوا شيئاً يذكر، كذلك وصل بعضهم إلى تولي وزارة التعليم العالي وخرجوا منها دون أي إنجاز في صالح التعريب.

عناصر عملية التعريب الأساسية

إذا نظرنا لقضية التعريب بشمولية، يجب أن نضيف إلى ما مر ذكره من واقعها بعض النظرات المستقبلية، وتكتمل هذه النظرة إذا فصلناها إلى محاور يستند كل منها إلى أحد عناصر العملية، وهي عناصر تصور أحياناً في شكل الصعوبات أو المعوقات، وعلينا عندئذ أن نمحص لنعرف مدى حقيقة هذه الدعوى أو تلك، وسأذكر أربعة محاور هي:

1- الأستاذ المؤهل للتدريس بالعربية

قد لا يوجد بين المختصين العلميين في الأردن إلا القليل ممن برعوا في اللغة العربية، لكن بما أنهم عرب نشؤوا على اللغة العربية يفترض أن لديهم المقدرة على التدريس بالعربية إذا توافر لهم النص العلمي الجيد، فلا أتصور وجود عقبة تحول دون أن يدرس أحدهم بالعربية، وإن كان قد يعجز عن التأليف والترجمة في موضوع تخصصه، وأقول "قد" لأنني لا أسلم تماماً بصحة دعوة العجز التي تثار أحياناً وكأن هؤلاء المختصين أجانب منتدبون للتدريس في الجامعات، فمن خبرتي التي بنيت بممارسة الترجمة والتأليف ضمن فريق وجدت أن من الممكن، بل والمفيد، الانطلاق بأفراد لا يدعون البراعة في العربية، ولا ينسب ذلك إليهم، إذا كانوا على استعداد لتقبل النصح وإجراء ما يلزم من التعديل والتغيير، فإنهم سرعان ما يكتسبون من البراعة والمقدرة ما يجعلهم أسرع في العمل وأكثر إتقاناً، وقد خرج من بين أيادي مثل هذه الفرق بعض من أفضل كتب الكيمياء بالعربية يجري استعمالها في عدد كبير من الجامعات والمعاهد العلمية.

ولا بأس من العودة إلى القول السابق وهو أن التدريس بلغة أجنبية في الجامعات عملية ليس لها من ذلك سوى الاسم، فيندر أن تجد أحداً يقتصر على استعمال اللغة الإنجليزية في محاضرته، بل إن معظمهم يشرح الدرس بالعربية العامية التي تتناثر فيها المصطلحات الأجنبية بعد أن اكتشف الجميع تقريباً أن هناك حاجزاً يحول بين

الطالب وفهم ما يلقي المحاضر إن تحدث باللغة الأجنبية فقط، لكن هذا النمط المشوه يؤدي إلى نتيجة مشوهة لأن الطالب يعود بعد ذلك بمفرده إلى الكتاب الأجنبي، ونتيجة ذلك كله أن ما يحصله الطالب لا يشكل قاعدة تمكنه من إقامة نقاش جيد لمشكلة علمية، ومنها حصل انقلاب في نمط الامتحانات وصارت مقتصرة على الأسئلة التي يختار فيها الطلاب واحداً من عدد من الإجابات الرمزية أو العددية، أما أسئلة المناقشة والتحليل فقد اختفت من أوراق الامتحانات، وصار الامتحان الشفوي من ذكريات التاريخ.

خلاصة الأمر إذاً انه لا توجد عقبة في هذا المجال، على أي حال حتى لو وجدت بعض حالات الضعف، فإن أي خطة شاملة للتعريب لا بد من أن تتولى علاج ذلك بالتدرب والتوجيه.

2- التعبير العلمي والمصطلح

من الصحيح أن البلاد العربية لم تصل إلى اتفاق في مجالات المصطلح واللغة العلمية، وربما لن تصل إلى ذلك بما هو متبع اليوم من أساليب، لكن رغم ذلك فإن التجارب المبتسرة التي شهدتها بعض الجامعات العربية والتجارب التي دامت إلى الآن أمدتنا بلغة علمية معقولة وبكثير من المصطلحات، بحيث نستطيع القول أن هذه كلها قاعدة معقولة لوضع الكتب أو ترجمة بعض الأصول الجيدة.

أما الاتجاه الرسمي في الأردن والعالم العربي عموماً فقد اتخذ من إعداد المعاجم العلمية أسلوباً على أن تكون هذه المعاجم عماد المؤلفين والمترجمين، وفي معظم الحالات كان التمسك بهذا النمط نوعاً من المماطلة لا أكثر، فما أسهل أن يتجنب أي مسؤول موقف الحسم، لأنه يقول لك، وملؤه الثقة بأصالة موقفه، إننا سنعرب حالما يتوافر لدينا المصطلح المقابل لكل تعبير علمي، والاسم المناسب لكل مادة علمية، ومن هنا صار هذا النمط في نفسه من أكبر معيقات التعريب، فإعداد المعاجم ما زال مستمراً منذ ولدت المؤسسات الثقافية التابعة للجامعة العربية، لكنه يسير على نحو سلحفائي، ولم تنتشر نتائج القليل مما أعد، تصوروا مثلاً أنه جرت محاولات عديدة لإعداد معجم لمصطلحات البترول كان آخرها مسودة مشروع وصلت إليها اللجنة المكلفة بإعداده بعد سبعة عشر عاماً، وحين عهد به إلى لجان لفحصه وتمحيصه لم

ير النور بعد عامين من ذلك، وهذا معجم ثانوي الأهمية يجب أن تسبقه معاجم في فروع العلم الصرف، ولكن التقصير هناك أفدح، لأن مثل تلك المعاجم لم تحظ بالدعم المالي الذي رصد لمعجم مصطلحات البترول لأسباب لا تخفى على أحد.

والمبالغة في شأن المصطلح نابعة إلى حد ما من الجهل بطبيعة اللغة التي تستعمل في العلوم الطبيعية على وجه أخص، لأن من الواجب أن يفرق المرء بين أسماء الأشياء والكائنات الحية من جانب والمصطلحات من جانب آخر، فالأولى أن تبقى الأولى على حالها لأنها بمثابة الصلة بين العلماء ذوي اللغات المختلفة، والأسماء هذه تكون في الغالب مثل أغصان وفروع انطلقت من أساس واحد، فاسم كل مركب ذي صلة بالبيريدين Pyriding لا بد أن يحتوى على هذا الاسم أو بعضه، فيُعرف عن هذا الطريق، ولا جدوى هناك من ابتداع اسم آخر للبيريدين، وما الذي أستفيده من إطلاق اسم نوشادر التراثي على المركب المكون من النيتروجين (ذرة واحدة) والهيدروجين (ثلاث ذرات) NH3 والذي يعرفه علم الكيمياء باسم أمونيا Ammonia إذا كنت بعد ذلك أطلق اسم ميثيل أمين على المركب المشتق من الأمونيا بوضع مجموعة ذرات (CH3) بدلاً من إحدى ذرات الهيدروجين، فالمركب الجديد مرتبط بالأمونيا بناءً واسماً، كما أن بعض الاسم الجديد (ميثيل) مرتبط بناءً واسماً بمركب آخر هو ميثان Methane، وهكذا دواليك.

ولماذا لا أُسمي المادة الدَّبِقَة المتبقية بعد تكرير البترول باسم أسْفلت Asphalt؟ ولماذا يقضي خبراء عديدون في العلوم واللغة ساعة أو أكثر يتناقشون حول هذا الاسم، ويرفضه بعضهم بغية البحث عن اسم تراثي ولا يجدون؟ فلم يهتد أحدهم إلى اقتراح الاسم "زفت"، وهذا من حسن الحظ لأن ذلك كان سيوقعهم في مجابهة مع عواقب ما ارتبط بهذه الكلمة من معان رديئة، وفي هذا السياق لماذا يتعنت البعض في استعمال كلمة نَفْطْ بدلاً من بترول مع أن التفكير المنطقي لا يمكن أن يقبل ذلك لأن النفط مادة كان يستضاء بها في السراج في أيام الحضارة العربية الإسلامية، ولا يعقل أن تلك المادة كانت البترول الخام كما يستخرج من الأرض.

غير أن هناك من الأسماء ما قد يعرب ببعض التحوير أو قد يوضع مكانه اسم صار مألوفاً من عاصروا تجربة التعريب أدخلوه من مصدر تراثي أو غيره وصار

مألوفاً مشهوراً، ففي العناصر الكيميائية مثلاً (واعذروني إذا أخذت أمثلة من ميداني) هناك النحاس والحديد والرصاص، لكن هذه مرتبطة بالجسم العلمي عبر الرموز الموحَّدة في كل لغة، ومن هنا كان من العبث تناول هذه الرموز بالتغيير.

وقد نسمى الكائنات الحية من حيوان ونبات بما شئنا من أسماء بسيطة مستمدة من محيطنا، إلا أن وراء ذلك كله الاسم المركب الذي صيغ من اللاتينية وفيه اسم الفصيلة واسم الجنس، وارتباطه قوي جداً بالهيكل التصنيفي الذي يبني عليه علم الحيوان وعلم النبات، ولا مفر في الدراسة العلمية الجادة من الرجوع إليه، فهو الرابط بين أهل هذين العلمين في كل لغة.

إذاً هذه قضية أُخرى حولت عن هدفها الأساسي وصارت حجة في يد من يريد مناهضة التعريب.

والمصطلح قبل ذلك كله أشبه بالكائن الحي ينمو ويترعرع وهو جزء من البيئة، ولا ينمو في حاضنة زجاجية؛ لذلك فالأصوب أن تولد المصطلحات وتنشأ في المؤلفات التي يجري تداولها، فيثبت المصطلح الصالح ويذوى ما لا يصلح. ولا بأس بالطبع أن يتوازى ذلك مع إعداد المعاجم لأن العمليتين تنجحان عندئذ بنوع من التكافل.

لكن الواقع يشير إلى أن اعتمادنا على إعداد المعاجم كشرط للبدء في التأليف كان سداً معيقاً خاصة وأن المعاجم عند ظهورها لا تزيد عن أنها نوع من التجميع دون الحسم في الترجيح والتفضيل.

وحيث يتعلق الأمر بالأردن اقتصر النشاط المعجمي على دراسة بعض ما أعده مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وما أعدته المجامع العربية المماثلة، وعلى قليل من المعاجم المتخصصة في مجالات أكثرها من غير العلوم الطبيعية، وليس بالمستطاع تقييم تأثير النشاط المعجمي على حركة تأليف الكتب، إذ يفتقر هذا إلى نوع من الدراسات.

ويجب أن لا ننسى أن اللغة العلمية يجب أن تفرق بين المصطلح والاسم، كأسماء معظم المواد الكيميائية أو أصناف الكائنات الحية، فالأولى أن "يعرب" الاسم أي أن ينقل بلفظه دون تغيير.

ويتضح مما رأينا أن الجهود المنصبة على إعداد المعاجم العلمية ليست ذات طابع محلي، فهي عربية قومية كما يدعي، لذلك فهي مبتلاة بكل عاهات العمل العربي المشترك.

3- **الكتاب**

من المألوف والمتوقع في عالم العلم أن يضع أهل العلم كتباً تستعمل في التدريس، وقد لا تخلو حياة أي عالم من مثل هذا النشاط، لكن لا شك في تفاوت العلماء في اِلإقبال على ذلك وفي الاستعداد له، ومن يحالفه النجاح في ذلك يحظى بانتشار الصيت، ولا يخفى عليكم ما عرف عن سمعة بعض دور النشر الملحقة بالجامعات الشهيرة مثل جامعة أوكسفورد في بريطانيا.

وفي مجال الكتب اللازمة للتعليم الجامعي يجب أن يكون من سياسة الجامعات أن تشجع التأليف باللغة العربية والترجمة إليها، لكن لا يمكن أن يتبع هذا الأسلوب المثالي إلا بعد أن يصبح التعريب نهجاً ثابتاً في المعاهد العلمية، وقد تبدو في هذا القول أصداء للنقاش الذي يدور حول البيضة والدجاجة وأيهما السابق، لكن حسم الأمر قد يكون بأسلوب يجمع بين إقرار التعريب وتهيئة الأسباب والعدة لكي ينمو ويرسخ في الوقت نفسه، فمن الواجب أن تنشأ هيئات عامة تابعة للجامعات أو للحكومات تزود بالأموال لتباشر نشر الكتب من مترجم ومؤلف، وقد صار هذا نمطاً متبعاً في بعض البلاد العربية ولكن الهيئات التي برزت كانت ذات اهتمامات محلية ضيقة، ولا تخرج عن ذلك الهيئة الوحيدة التي انبثقت عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وهي "المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر" الموجود في دمشق، فهو لم يصبغ عمله بعد بطابع العمومية العربية، وما صدر عنه من كتب لم يخدم قضية التعريب على أي صورة تذكر.

وفي الأردن لم تقم أي من الجامعات الرسمية أو الخاصة بإنشاء هيئة للتعريب، كما أنه لم تنشأ هيئة حكومية لهذا الغرض.

ولكن مجمع اللغة العربية الأردني تصدى لهذه المهمة كما ذكرنا وأنفق من موارده المحدودة على بعض المترجمات العلمية الجيدة التي لاقت رواجاً في الأردن والبلاد العربية، وتبع ذلك أن برزت مبادرة لاستعمال هذه الكتب في السنة الأولى الجامعية في حينه لكنها وئدت في مهدها فلم يكتب لها الاستمرار، لكن مبادرة مجمع اللغة العربية هذه تقلصت أو توقفت من الناحية الفعلية بعد أن صار تدبير المال اللازم لبقائها يزداد صعوبة.

ولا شك في أن بروز هيئة للتأليف والترجمة والنشر تتمتع بالمقدرات المالية والفنية سيكون أمراً يشجع على التقدم نحو التعريب، وإذا كان لمثل هذه الهيئة أن ترى النور فيجب أن تكون مرتبطة بالجامعات على نحو وثيق لأن الجامعات هي المستفيد الأول وبيدها كل عناصر التنفيذ إذا أعطيت لها الوسائل والإمكانات.

4- اللغة الأجنبية

من المسلم به في الدوائر الأكاديمية أن إتقان لغة أجنبية أو أكثر أمر جوهري للمشتغلين في العلوم، لأن ذلك يفتح للدارس أو الباحث نافذة على المنشورات العلمية، فتتوسع آفاق معرفته، فالياباني والألماني يجدان من المفيد أن يعرفا الإنجليزية، كما أن من كانت الإنجليزية لغته الأم يحاول أن يتقن الألمانية، ويبرر من يستعملون اللغة الإنجليزية في التعليم الجامعي عملهم بأن هذا يرفع قدرات الطالب في اللغة الأكثر انتشاراً ويجعله أكثر قابلة للالتحاق بالدراسات العليا التي تتم غالباً في الخارج. لكن نسبة من يواصلون الدراسة بعد الدرجة العلمية الأولى نسبة قليلة بالمقارنة مع المجموع، فلا يصح أن تبنى على ذلك سياسة تعليمية عامة، ومن ينتقلون بالفعل إلى الدراسات العليا هم نخبة تجعلهم مؤهلاتهم الشخصية بعيدين عن أي عجز محتمل أو متوهم في اللغة الأجنبية.

كذلك فإن واقع الحال يثبت أن هذه ليست الوسيلة الصحيحة لإتقان اللغة، فمن يصلون مرحلة الماجستير في الجامعات الأردنية درسوا لسنوات ست باللغة الإنجليزية، لكن الغالبية الساحقة منهم لا تستطيع التعبير السليم عن قضية علمية سواء أكان ذلك نطقاً أم كتابة، بل إن مفرداتهم اللغوية مشوهة في كثير من الأحيان، والسبب في ذلك واضح هو أنهم لا يتلقون أثناء ذلك تعليماً أو تدريباً لغوياً، بل إنهم لا يسمعون من الأستاذ لغة إنجليزية، بل شروحاً باللغة العامية التي تتناثر بينها المصطلحات، وحتى لو كان الطالب قد يكتسب بعض الفوائد اللغوية المحتملة من قراءة النصوص الإنجليزية، فإن قصور الفهم والاستيعاب كفيل بمحمو ذلك.

وأي خطة منطقية للتعريب لا بد أن تضع في الحسبان تدريب الطلاب اللغوي في إحدى اللغات الأجنبية أو أكثر، ويجب أن لا يترك ذلك للمبادرة الشخصية، وما ذكرنا عن توفير الكثير من الوقت عندما تدرس المواضيع العلمية باللغة العربية، يتيح

للطلاب من الوقت ما يجعلهم يدرسون لغة أجنبية إلى مرحلة متقدمة أن وجدوا في أنفسهم الميل لذلك، ومن وسائل تقوية هذا الاتجاه أن يشمل البرنامج العلمي مادة أو أكثر تدرس باللغة الأجنبية وخصوصاً تلك المواد المتصلة بالبحث المكتبي.

الخلاصة

لا بد من انتشال المجتمع الأردني والمجتمعات العربي من دوامة التخلف العلمي والتكنولوجي، بقفزة تنقلها من الموجة الأولى الزراعية حسب تعريف توفلر لمراحل الحضارة، لأن العالم المتقدم قد بدأ بالفعل خطواته للانتقال إلى الموجة الثالثة، عصر ما بعد الصناعة بعد أن مر بالموجة الثانية الصناعية وأوشك أن يتخطاها، وفي سبيل هذا الهدف لا بد من أن تكثف هذه المجتمعات استعانتها بالعلم والتكنولوجيا.

وقد ألمحنا إلى بعض مظاهر التخلف العلمي في بلاد العالم النامي، وهي مظاهر للاقتصاد المتدهور في بلاد الجنوب، وللقاعدة الواهية من العلم والتكنولوجيا، والأمر في تفاقم متواصل لأن متطلبات العلم الحديث من الأجهزة والمعدات عالية جداً، لذلك لا يوجد إزدهار حقيقي للعلم إلا في المراكز الاقتصادية ذات الغنى البارز، فمراكز العلم الأساسية هي في الشمال الغني المتكاثف وبعض توابعه في الجنوب، أما الأغلبية الساحقة من أهالي بلاد الجنوب فهي مشغولة بتدبير لقمة العيش أو بالبحث عن علاج لمصائب الديون الأجنبية التي وقعوا في إسارها أحياناً بسوء أفعال حكوماتهم، فتذهب في تسديد فوائد الديوان خيرات أراضيهم من الموارد الطبيعية أو الزراعية التي تتناقص أسعارها باستمرار، في حين تزداد أيضاً أسعار منتجات الشمال من أدوات الصناعة والتكنولوجيا.

فأي نهضة علمية عربية في المستقبل لا تعدو أن تكون وهماً وسراباً، وتحقيقها يدخل في باب المعجزات، إلا إذا أقدم العرب على الاتحاد والاندماج في ميادين بعد تكرار فشلهم في الاتحاد السياسي.

والأمر ليس من الخوارق، وإنما هو معجزة بالمعنى الذي توصف به المنجزات البشرية، ويمكن أن تهيأ لها الأسباب لتصبح واقعاً، فمن غير المجدي التفكير بأن دولة عربية تستطيع بمفردها إعداد مقومات العلم الحديث، لكن كتلة عربية ذات اقتصاد مزدهر يمكن أن تكون الأساس السليم لذلك، فميادين العلم الحديث النشطة

كالفلك وعلوم الفضاء والبيولوجيا الجزيئية والطاقة والاندماج النووي مثلاً تستعمل أجهزة ومعدات مثل المقاريب (التيليسكوبات) الضوئية أو الراديوية والمعدات الإلكترونية الخاصة بالكشف والتحليل والمتابعة، والحواسيب والمسرعات النووية وغيرها.

والنفقات التي تلزم لذلك تقدر بالبلايين، لأنها يجب أن تتناول إلى جانب ذلك الإعداد الصحيح لفرق العمل حتى تستعمل هذه الأجهزة على نحو مجد لا يتهدده التوقف بسبب نقص الأموال أو الأفراد، وحتى مجالات البحث العلمي الأقل مما ذكر تعجز أي قطر عربي منفرد لأن تكاليفها تصل إلى عشرات أو مئات الملايين.

وفي أيامنا هذه مثال صارخ للنفقات المرتفعة للعلم تتناقل أنباءه جميع وسائل الإعلام، وهو مرقاب هابل الذي يعمل خارج نطاق الغلاف الجوي لأن الصور الملتقطة من هناك أنقى وأدق من تلك التي تلتقط من مرصد مقام على قمة أحد جبال الأرض التي يطرأ عليها التشويش بفعل الجو، وأساس هذا المرقاب فكرة راودت الفلكي الذائع الصيت إرنست هابل قبل عشرات من السنين، وطبقت الآن وسمي باسمه، فهذا المرقاب بما فيه من أجهزة دقيقة زادت تكاليفه على بليون دولار بالإضافة إلى نفقات وضعه في مداره، وحتى صيانته التي تمت مؤخراً وصلت إلى حوالي 350 مليون دولار، وفي بداية عهده كانت الصورة الواحدة تكلف عشرات الألوف من الدولارات، لكنها الآن تكلف حوالي أربعة آلاف دولار، وهي بذلك أبعد من الثريا عن فلكي في إحدى البلاد العربية.

وحين نبحث في من تولوا المشروع ومن يستفيد منه نجد أن الولايات المتحدة تعاونت فيه مع أوروبا الغربية، فهناك القادرين على ذلك وهم المستفيدون منه.

ونسمع الآن أن اليابان سترسل مرقاباً راديوياً إلى الفضاء شبهت مقدرته أو مُثّل مقدرة شخص يقف في مدينة لوس أنجلوس على رؤية قطعة نقدية ملقاة على رصيف في طوكيو.

فالترقي في ميادين العلوم بحاجة إلى كل ذلك وهو بحاجة إلى التعريب كما بينا لأنه أحد العوامل التي تمكن من الإعداد المطلوب بحيث يتحول الدرس القراءة إلى فهم أفضل واستيعاب أقوى وإلى ابتكار وإنجاز.

وقد أبرزت دور العامل الاقتصادي لأنه ركن أساسي بل هو الآن نقطة الارتكاز في نجاح رسالة التعريب بوجه خاص، لأن إعداد الكتب والمنشورات الجيدة ونشرها في أرجاء العالم العربي يتطلب نفقات غير يسيرة وأجهزة فنية للطباعة والإخراج المتقن لا يتسنى الحصول عليها إلا بتوافر المال، فالعلم الحديث ذو نفقات باهظة كما ذكرنا، ولكن المال الذي ينفق في سبيله سواء أكان في ميدان التعليم والتدريب أم في مجال البحث هو مال ينفق في غاية شريفة.

المراجع

١ – اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، عبدالكريم خليفة، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني 1987م.

٢ – عودة إلى تعريب التعليم العلمي، عادل أحمد جرار، مجلة أفكار عدد (20) 1975م.

٣ – مدخل إلى مجمع اللغة العربية الأردني. منشورات مجمع اللغة العربية 1988م.

٤ – تعريب التعليم العالي، عفيف حسن، الكاتب للثقافة الإنسانية والتقدم مجلد 7 عدد 71، 1986م.

٥ – The Third Wave, Alvin Toffler, Pna Books, 1980.

٦ – The GAIA Atlas of planet Management, Editor Norman Mayers, Pna books, p. 204.

٧ – Our common Future, The report of the world commission on Environment and Development, p.87.

٨ – Address at the Inaugural Session of the Round Table Session On Development: The Human Dimension M, Abdus Salam, Istanbul 2-4 Sep. 1985.

٩ – "الحياة مع لغتين" (الثنائية اللغوية)، محمد علي الخولي، الفصل العاشر، الطبعة الأولى، 1988.

المحاضرة الثالثة

"اللغة العربية والتعريب العلمي في العراق
في الحاضر ونظرة إلى المستقبل، قضايا وحلول"

الأستاذ الدكتور جميل الملائكة

العضو السابق في المجمع العلمي العراقي

العضو المؤازر في مجمع اللغة العربية الأردني

السبت 10 محرم 1418هـ - 17 أيار 1997م

السيد رئيس مجمع اللغة العربية الأردني

السيدات والسادة الحضور:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته–

أودّ أولاً أن أشكر مجمع اللغة العربية الأردنيّ، والسيد رئيسه، جزيل الشكر، على دعوتي واستضافتي، لتقديم هذه المحاضرة، عن تعريب التعليم في العراق، راجياً من الله تعالى، أن يديم لهذا المجمع العتيد، تقدمه وازدهاره.

لقد كثر الكلام على التعريب، وحتميّة التعريب، حتى لا يكادَ، يبقى فيه مقولةٌ لقائل، ولعلّ مما سيخفِّف من إعادة بعض الكلام، أنّ جانباً كبيراً من حديثي، سيتناول تجربة العراق في التعريب، وما جابهته حركة تعريب العلوم، وتجابهه من معوقات، وسبلَ تذليلها، والتطلعات إلى المستقبل.

ولعلّ من المناسب الإشارةَ إلى تعدّد الاستعمالات الاصطلاحية، للفظ التعريب. ففيما عدا معانيه اللغوية المتعددة، كان معناه الاصطلاحيُّ مقصوراً على تحوير الكلمة الأجنبية بعض الشيء، لتماثل الكلماتِ العربيةَ بأصوات حروفها، كما في تعريبهم اللفظة اليونانية geographia، بكلمة (جغرافيا)، أو حتى بإعطائها وزناً عربياً، كما في تعريبهم Philosophia، بكلمة (فلسفة)، وأضيف إليه في زمن متأخر معنىً اصطلاحي عامّ، هو جعلُ المجتمع، بأناسه، وعاداتهم، ولغتهم، ومظهرهم، وطُرُزهم العُمرانيّة، ونحو ذلك، عربياً وأخصّ منه معناه الاصطلاحيُّ الذي يُهمّنا في هذا الحديث، وهو أن تكونَ لغةُ العلم والتعليم هي العربية.

والتعليم العامّ في العراق، كما هو في أكثر البلاد العربية، معرَّب كلُّه ، ومثل ذلك يقال فيما يدعى بالعلوم الإنسانية في التعليم العالي، كالآداب، والقانون والتربية، والاقتصاد، والاجتماع، والعلوم السياسية، ونحوِ ذلك، فأكثره معرَّب.

ولهذا سيقتصر هذا الحديث على قضايا في تعريب التعليم العالي، في العلوم الصرف والتطبيقية، كالفيزياء، والكيمياء، والهندسة ، والطب، ونحو ذلك.

كان بعض الأصوات ينادي بوجوب تعريب التعليم العالي جميعاً، منذ أكثر من خمسة عقود من الزمن، ذلك لأنّ أكثر الكليات العلمية في العراق، ولا سيما التطبيقية منها، كانت التدريسات كلُّها فيها باللغة الإنكليزية ، وتعود أسباب ذلك إلى أن أكثر تلك الكليات، كان قد أنشِئ في أزمنة باكرة ، فقد أنشِئت كلية الطب مثلاً، سنةَ 1927، وكلية الصيدلة سنة 1936، وكلية الهندسة سنة 1942؛ فكان عُمداء تلك الكليات وأكثر أساتذتها، من الإنكليز، أو من الأساتذة العراقيّين والعرب الذين كانت دراستهم باللغة الإنكليزية ، وكانت الكتبُ المستعملةُ كلُّها باللغة الإنكليزية ، فكانوا جميعاً يحاضرون بتلك اللغة، والطلبةُ يدرسُون ويناقشون ويمتحنون بها ، وهكذا كانت كلّ الصيحات المنادية في تلك الآونة بالتعريب تذهب مع الريح.

ولازدياد عدد الكليات، أنشئت جامعة بغداد سنة 1957، ثم جامعة الموصل سنة 1967، فجامعتا البصرة والسليمانية سنة 1968، وفي سنة 1970، أُسِّست وزارة التعليم العالي والبحث العلميّ، التي تولّت تنفيذ سياسة الدولة التربويّةِ والثقافية والعلمية والتكنولوجية في نطاق مؤسسات التعليم العالي، الرسميّة والأهليّة، القائمةِ آنذاك، وما قد تستحدثه الدولة من مؤسسات مماثلة في المستقبل.

لقد ورد في قوانينِ جميعِ تلك الجامعات، ثم في قانونِ وزارةِ التعليم العالي، الذي حلّ محَلَّ تلك القوانين، النّصُّ الذي يؤكِّد "أنّ اللغة الرسمية في الجامعات العراقية، هي اللغة العربية... ولمجالس الجامعات، أن تقرِّرَ تدريس بعضِ الموادِّ العلميّة، بلغاتٍ أخرى".

غير أنّ الذي كان يحصل في الأغلب، أن يُطبَّقَ الجزء الأخير من هذا النصّ، فيُدرَّسَ أكثرُ الموادّ العلميةِ باللغة الإنكليزيّة ، بل إنّه كان يطبَّق على جميع الموادّ العلميّة، في الكليات التطبيقية ، ففي كليّات الهندسة، وكليّات الطبّ، على سبيل المثال، كان يُطبَع في مَطلع كلّ سنة دراسية، الدليلُ السنويّ لمناهج الدراسة في أقسام الكلية، وتفاصيل مفرداتها جميعاً باللغة الإنكليزية، ومثلُ ذلك يقال في الكتب الدراسية المقررة، ولغةِ إلقاء المحاضرات، والمناقشاتِ، والامتحانات.

وكانت بادرة حكيمة، عندما اتخذت حكومة الثورة قرار التعريب في سنة 1976. فأقرّ مجلسُ التعليم العالي إلزام الجامعات ببدء تعريب التعليم في الصفوف الأولى بصورة تامة، اعتباراً من السنة الدراسية 1977–1978، على أن يُطبَّق ذلك ف ي

الصفوف الثانية في السنة التالية، وهكذا حتى يشمُلَ جميع الصفوف ، وكنتُ قد كُلِّفتُ آنئذٍ، إضافة إلى عملي في كلية الهندسة، بتأسيس دائرة للتعريب في وزارة التعليم العالي، تُشرف على المشروع، وتقدِّم التوصيات والمقترحات، إلى لجنة وطنية عليا للتعريب، أُلِّفت في حينه لوضع الأسس العامة لتعريب التعليم الجامعيّ، فأقرّت تأليف لجانٍ اختصاصية مشتركة، تنظر في اختيار كتب الترجمة والمترجمين لها، وما يتبع ذلك من متابعةٍ وتقويم ، وعُهِدت قضايا تأليف الكتب المنهجيّة، إلى هيئاتٍ علميّة مرتبطة بالدوائر الفنيّة في الوزارة.

وأقرّت الوزارة مرحليّاً استعمال الكتب المعتمدة العربية والأجنبية، ريثما تنجز الكتب العربية المقرّرة.

وصدرت التشريعات والقرارات بشأن كلّ ما يتعلّق بتشجيع تأليف الكتب باللغة العربية، أو ترجمتها إليها، وكتابةِ الأبحاث بها، والمكافآت المخصصة لذلك، وأثر جهود مُعدّي الكتب في الترقيات العلمية، وطريقة إعداد كتاب التعريب، وتوفير متطلباته، وتيسير طبع مسوَّداته، وإحالته إلى الخبير العلميّ واللغويّ، قبل طبعه، والجوانب المالية المتعلقة بذلك، وأسلوب عمل اللجان الاختصاصية، والهيئات العلمية، وشعب التعريب المستحدثة في الكليات، ولجان المتابعة، وكلّ المعلومات التي تُهِمّ المشتغلين بالتعريب.

كان من بين تلك القرارات:

- أن تكون مناهج الموضوعات المتشابهة في الجامعات، موحَّدةً مبدئياً، لتسهيل البدء في العمليّة.
- وأن تُسمِّي الجامعات إلى الهيئات العلمية، واللجان الاختصاصية المشتركة، مرشحها لتأليف الكتب المنهجية أو ترجمتها، على وفق المناهج الموحدَّة لتقوم تلك باختيار المؤلفين والمترجمين من بين مرشَّحي الجامعات.
- وفيما يخصّ المصطلحات، أعدّت دائرة التعريب، قائمةً كبيرةً بأسماء المعجمات العامة المعتمدة، ومعجمات المصطلحات ومجاميعها العلميّة الاختصاصية، مما أصدرته المجامع والجامعات والمنظمات والمؤسسات العلمية ونحوُها، وعمّمتها

على الجامعات لإعلام الكليات والأقسام بها، والإسراع في توفيرها للمشتغلين في التعريب، اقتناءً أو استنساخاً.

- وألزمت القرارات، أن يعود المؤلف أو المترجم أو الباحث، إلى ما يتيسر من المعجمات ومجاميع المصطلحات، في اختيار المصطلح، فإن لم يجده فيلجأ إلى وسائل الترجمة أو الاشتقاق أو القياس أو المجاز، مع استشارة ذوي الاختصاص في اللغة إذا لزم ذلك.
- وأن يضعَ مُعِدُّ الكتاب أو البحث، المصطلح الأجنبيَّ بإزاء المصطلح العربيّ، عند أول وروده في متن الكتاب أو البحث.
- وأن توضع في آخر الكتاب أو البحث، قائمة بالمصطلحات المستعملة فيه، بمدخَلين، إنكليزي–عربي، وعربيّ–إنكليزي.
- وأن يُلزَمَ الطالب بحفظ المصطلح الإنكليزيّ، إضافةً إلى حفظه المصطلحَ العربيّ، لتمكينه من المتابعة العلمية في المراجع الأجنبية إذا لزم ذلك.
- وأن تُدَرَّس اللغة الإنكليزية العلمية، بمعدَّل ساعة واحدةٍ أسبوعياً في الأقلّ في السنة الجامعية الأولى للغرض نفسه.
- وأن تكون المجامعُ واتحادها، هي التي لها الكلمةُ الأخيرةُ في تنسيق المصطلحات وتوحيدها.
- وأن يَضَعَ مؤلف الكتاب، أو مترجمُهُ، أو الباحث، قائمةً بالمصادر والمراجع في الآخر، لإمكان متابعة الدراسة والبحث عند الحاجة.
- وأن يُستفادَ من الخِبرات العربيّة، في مجال الترجمة والتأليف، باستزارة الأساتذة العرب، والتعاقد معهم، للمشاركة في مجال التعريب.
- وأن لا تقلَّ مدة استعمال الكتاب المعرَّب، عن ثلاث سنوات، يمكن تجديد اعتماده بعدها.
- وأن يكون المترجم مسؤولاً عن التنبيه، في حاشية الكتاب المترجم، على ما قد يرد فيه من عبارات ومعلومات مغلوطة.

– وأن تُشعَرَ الجامعات الأخرى في جميع الأحوال، باسم أيّ كتاب تراد ترجمتُه، تجنّباً للتّكرار.

– وأن تجمع دائرة التعريب ما يرد من الجامعات من أسماء الكتب التي تراد ترجمتها، وأسماء مترجميها، وتنسقها في قوائم يجري تحديثها باستمرار، وتوزَّع على الجامعات.

– وأن لا يجوز طبع أيٍّ من المعجمات الفردية، التي يُعِدّها أساتذة الجامعات، أو نشرُها، إلاّ بعد إقرارها من المجمع العلميِّ العراقي.

وهكذا كانت الأسس العامّة للمشروع ، وسار العمل على هذا النهج، بدءاً من السنة الدراسية 1977–1978.

وفي سنة 1977 صدر قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية، الذي نصّت المادة الثانية منه، على أنّ "على المؤسسات التعليمية في مراحل الدراسة كافة، اعتماد اللغة العربية لغةً للتعليم، وعليها أن تحرص على سلامتها لفظاً وكتابةً، وتنشئة الطلاب على حسن التعبير والتفكير بها، وإدراك مزاياها، والاعتزاز بها".

وأخذ مشروع التعريب يأتي أكله، فصارت المحاضرات تُلقَى باللغة العربية، ولا يكتفي الأساتذة باستعمال المصطلح الأجنبيّ، إلاّ عند الضرورة، على أن يشرحوا معناه، وأنجز عدد من المختصين تأليف بعض الكتب وترجمتها في العلوم المختلفة.

غير أنه سُرعان ما سُمِعت أصوات تنادي بالتريث في تعريب الطبّ ، فلم تمرّ سنة وبعض السنة، حتى خبت جذوةُ تعريب العلوم الطبية، وهي بعدُ في أولها.

وكانت الهمة والنشاط، والالتزام بالتنفيذ، في تعريب بقية العلوم الصرف والتطبيقية، بدرجات متفاوتة في الجامعات المختلفة.

ومرّ زمن.. وإذا التعريب، وإعداد الكتب باللغة العربية، وإلقاء المحاضرات بها، يكاد يصبح في بعض الجامعات أمراً طوعياً، على الرُّغم من أنه لم يصدر قانون

يلغي قانونَ الحفاظ على سلامة اللغة العربية، أو مادّتَهُ الثانية، التي توجب نصّاً، اعتماد اللغة العربية لغةً للتعليم في مراحل الدراسة كافّة.

فأين تقع المشكلات؟ وما هي الحلول؟

1- مما يدعو إلى الأسف، أن بعض الجامعيين يغيب عن بالهم، أنّ استعمال اللغة القومية، هو دليل الوَلاء والانتماء، وأنّ في تركها إلى غيرها، معنى المساس بالهُوِيّة القومية والسيادة، وأنه لمثلِ هذه الأسباب تُدَرَّس العلوم باللغات القومية، في يوغوسلافيا، وبلجيكا، والسويد، وفنلندا، وإيطاليا، والبرتغال، وإسبانيا، واليونان، وتركيا، والمجر، واليابان، والصين، وفرنسا، وألمانيا، وإنكلترا.

فإنّ كل هؤلاء الأقوام، لم يرض لهم الوَلاءُ لقومياتهم، واعتزازُهم بالحفاظ على هُويّتهم، ومشاعرُهم بالانتماء، أن يفرِّطوا بلغتهم، التي وجدوا في التمسك بها أهمَّ مقوِّمات وَحدتهم القوميّة.

لهذا ينبغي الإكثارُ من النّدَوات والحلقات والمحاضرات التي تركِّز على هذا الجانب، في المدارس، والجامعات، والجمعيات العلمية، ووسائل الإعلام.

2- ويعتقد بعض الأساتذة الجامعيين، الذين كان تحصيلهم العلميّ بلغة أجنبية، أنّ اللغة العربية غيرُ قادرةٍ على التعبير العلميّ، وأنها لا تصلحُ للنهوض بمهمة التعريب.

إنّ أكثر هؤلاء لم تسنحْ لهم الفُرصة، وهم في غمرة دراساتهم العلمية، لأن يتعرفوا مرونة اللغة العربية، ووفرة مبانيها، وغنى معانيها ، وقد كان بعضُ تلك الأحاسيس والأفكار الخاطئة، من آثار ما كان ينشره الأجانب في زمن الاستعمار، من أمثال القاضي ويلمور، والمهندس ويلكوكس، من كتاباتٍ مضلِّلة، تُوهِم بعجز اللغة العربية عن استيعاب العلوم، وصعوبة تعلّمها، وأنها لا تصلحُ لغير الأدب والشعر والخطابة ، وأنكى من ذلك، أنّ عدداً من الكتّاب العرب، تابَعَهم في هذا إلى أمدٍ طويل ، فنشروا

كتاباتٍ ادَّعَوا فيها جَدْبَ اللغة العربية، وعدم صلاحيتها لوضع المسمَّيات الجديدة، كلٌّ ذلك بأسلوب استعملوا فيه الكثير من المداورة، بادِّعاء الغيرة على العربية، وإرادةِ إحيائها باستعمال العاميّة في الكتابة والتعليم، والإبقاء على جميع ما يُستعمَلُ فيها من ألفاظ أجنبية، أو استعمال اللغة الأجنبية، لأن العربية الفصيحة فيما يدَّعون، لا بيان فيها إلاّ لمن يعرفونها، وهم قِلّة، ومع ردود الكثيرين الحاسمة على تلك الكتابات، بقيت آثارها حتى زماننا هذا.

ولكن هل من المعقول، أن تصلُحَ لغات كلّ الأقوام الذين سلف ذكرهم للتعليم، ولا تصلُحَ العربية؟ هذه اللغة التي نقلت بها علوم اليونان والهند إلى هذه البلاد التي نَمَّتها وأضافت الكثير إليها، حتى باتت هي مركزاً للإشعاع العلمي، الذي استند إليه الكثير من العلوم الحديثة في تطوره ونموّه، هذه اللغة التي كرّمها الله تعالى فأنزل بها القرآن، التي هي الثالثة انتشاراً في العالم بعد الإنكليزية والإسبانية، يتكلم بها مئتان وستون مليونَ عربيّ، ويصلِّي بها ويقرأ القرآن خمسة أضعاف هذا العدد، التي تمتاز عن كثيرٍ سواها من اللغات، بطواعيتها للاتّساع بالاشتقاق والقياس والمجاز، مما لا يتّسع المجال هنا للدخول في تفاصيله، مع العلم بأن توظيفها للتعريب العلميّ سيضاعف من قابليتها للنهوض بهذه المهمة!

لكل هذا يلزم إقامة دورات للجامعيين، من أساتذة وطلبة، تكشف لهم عن خصائص اللغة العربية، وغِناها، وإمكاناتها العظيمة في التعبير والعبارة العلميّة، لإزالة بعض القناعات الخاطئة، والأفكار الزائفة، بعجز العربية عن النهوض بمهمة تعريب العلوم.

3- ويحتجّ آخرون بوجوب التريّث حتى تكتمل المصطلحات. إنّ هذه الذريعة من أخطر المثبّطات للعزائم، وكانت دائماً تؤخرّ مسيرة التعريب في العقود الخمسة أو الستة الأخيرة، ليس في العراق فقط، وإنما في أكثر أقطار البلاد العربية ، ولكن هل انتظر كلّ الأقوام الذين سبق ذكرهم، فلم يدرِّسوا بلغاتهم القوميّة، إلى

أن قدِّمت إليهم المصطلحات بأطباقٍ من ذهب؟ وهل انتظر أسلافنا الذين نقلوا العلوم إلى العربية حتى زُوِّدوا بالمصطلحات كاملةً غيرَ منقوصة؟

إن العلم يتقدم بسرعة، ولا سيما في هذه الأيام ، وفي كلّ يومٍ تظهر عشرات الدَّلالات العلمية التي تحتاج إلى أسماء ، وليس في وُسعِ أيٍّ من المعنيين بالكتابة العلمية والتعليم، أن ينتظر كلّما عنّت له فكرة، أو جابهته دلالة علميّة جديدة، وأراد الكتابة فيها، أن ينتظر ريثما تنظر في تسميتها المجامع والهيئات العلمية المتخصصة، ولو حصل مثل ذلك لتأخرت مسيرة العلم.

لقد وجد العلماء والباحثون، وأهل الاكتشافات والاختراعات في البلاد المتقدمة الحلَّ، بأن يتحرّى المحتاج إلى المصطلح المعجماتِ الاصطلاحيّة والعلميّة واللغوية، الصادرة عن المجامع والمؤسسات المتخصصة، فإن لم يجد فيها ضالته، فيجتهد في اختيار الاسم المقارب للمعنى المراد، وقد يحتاج إلى استشارة أهل اللغة في ذلك ، والمصطلح، كما هو معروف، يوضَع لأدنى عَلاقةٍ أو ملابَسة ، ولا بدّ في جميع الأحوال من شرح المعنى المراد بالمصطلح المقترح، في آخر البحث أو الكتاب ، وثمة جهات لغويّة وعلميّة، على غرار مجامعنا، تنظر دوريّاً في هذه المصطلحات، فتُقِرّ منها ما تراه مناسباً، وتُصلح أو تغيِّر ما تجد فيه خطأً صرفياً أو لغوياً أو علميّاً.

وثَمّة مئات الآلاف من المصطلحات العلميّة العربيّة، مما أنجزته المجامع، والجامعات، والمنظَّمات، والاتحادات، والجمعيات، والمؤسسات العلمية، وبعض الأفراد العلميين ذوي التخصّص، مما هو مبثوث في المعجمات والمجاميع الاصطلاحية، وهو في مجموعِهِ، ذخيرة نفيسة للعاملين في التعريب.

4- ومثل ذلك يقال في الاحتجاج بضرورة التريث في التعريب حتى توحَّد المصطلحات، وهذه الذريعة مردودة أصلاً، لأنّ عدم توحيد المصطلحات للدلالة العلمية الواحدة، لم يكن يوماً في البلاد المتقدمة، مما يؤخِّرُ مسيرة العلم ، وتتعدد المصطلحات للدلالة الواحدة بوجه خاص، في البلاد المنتشرة على رقعة كبيرة

من الأرض التي تُستعمَلُ فيها لغة واحدة ، ففي الإنكليزية مثلاً، يستعمل بعضهم مصطلح stop logs، ويستعمل آخرون flash boards، وغيرُهم stop planks للأعتاب التي يوضع بعضها فوق بعض في أخدودين رأسيين على جانبي قناة لوقف الماء، ويستعملون مصطلح stalk أو مصطلح stem للدلالة على الجزء الرأسي من جدار الإسناد الخرساني، ويستعملون crown أو soffit أو vertex للجزء العلويّ من الوجه الداخليّ من العقد المستعمل في المجاري ، وثمّة مئات الأمثلة على ذلك ، ولكنهم لم ينتظروا أو يتوقفوا عن التعليم ريثما توحَّد هذه المصطلحات.

وفي بلادنا العربية المترامية الأطراف، المتعدّدة الأقطار، لا يُتَوَقَّع أن يختلفَ الوضع عمّا ذكرناه ، فمسيرة العلم يجب أن تستمرّ ، فلا يمكن أن نبقى ننتظرُ فلا نعرِّب التعليم إلى أن توحَّدَ مصطلحات الرقّاص، والنوّاس، والخطّار، والبندول، أو مصطلحات الحاسب، والحاسبة، والحسّابة، والحاسوب، أو مئات المصطلحات الأخرى التي لم توحَّد ، بل على النقيض من ذلك، يكون الحلّ في السير قُدُماً في عملية التعريب، لأن الاستعمال هو الذي ينتخل، ويغربل، وقد يقلِّل من تعدّد المصطلحات، فيُبقي الأحسنَ والأفضل، أو الأوفر حظّاً، ويساعده في ذلك في الوقت عينه، ما تقوم به المجامع، واتحاد المجامع، والمؤسسات العلمية، كما مرّ بيانه.

ففي اللغة الإنكليزية مثلاً، أزاح مصطلح roughness مصطلح rugosity بالاستعمال وبمرور الزمن، وكان كلاهما مستعملاً، وكلاهما يعني خشونة سطوح القنوات والأنابيب ونحوها ، وأزال مصطلح derivative مصطلح fluxion لمعنى (المشتقّة) في الرياضيات، وفي العربية أزال مصطلح (مربَّع) مصطلح (مال) لحاصل ضرب عدد في نفسه، وأزال مصطلح (الفلك) مصطلح (الهيئة) الذي كان يستعمل سابقاً، ومثل ذلك عشرات الأمثلة.

5- والمشكلة الأخرى، التي يتذرّع بها الداعون إلى التريث في التعريب، هي عدم تيسّر الكتب الدراسية والمرجعية، والمجلات العلمية، وهذه الحُجّةُ هي التي كانت السببُ في وقف تعريب التعليم الطبيّ في العراق، منذ نحو عشرين عاماً، كما سبق بيانه، فقد أحتجّوا بلزوم الانتظار سنتين أو ثلاثاً، ريثما يُنجزُ إعدادُ الكتب المنهجيّةِ من مؤلفةٍ ومترجمة ، ومن الطبيعيّ أن يكون أساتيذ الطبّ هم المعوّلَ عليهم في تعريبه وإعداد كتبه المنهجيّة ، ولكن مرّت السنون والسنون، ولم يُعرَّب تعليم الطبّ، ولم تُعَدَّ كتبه، ولم ينفع الانتظار في شيء. ومثل هذا حصل منذ أكثر من ستين عاماً في بعض البلاد العربية.

الحلّ الذي هو عند كلّ الأمم التي تعلّم بلغاتها القومية، هو أنها عندما تفتح كليّة للطبّ، يُعِدّ أساتذتها محاضراتهم ويُلقونها بلغتهم القومية، ويقدّمونها لطلبتهم بهيئة كراريسَ وملخّصات في البدء، وهم في الوقت عينه يبذلون كلّ جهد وهمّة، في تجميع تلك الموادّ، وتطويرها، وتهذيبها، والإضافة إليها، ليتهيأ لهم منها الكتاب المنهجي. وهكذا بمرور الزمن والمراس والتطبيق، يُصبح لديهم لغة علمية سهلة وسلسة تمكّنهم من وضع كتب المراجع أيضاً، وإصدار المجلات العلمية.

6- ويتخوّف بعض الأساتذة الجامعيين، من أنّ التعريب قد يسبّب انقطاعاً عن العلم العالميّ، ومثل هذا التخوّف هو أيضاً في غير محله ، فإن جامعات العالم التي يجري فيها التعليم بلغاتها، لا يمكن لها أن تقطع نفسها عن مواكبة العلوم وتقدمها في البلاد المتقدمة ، وهي تحلّ الإشكال، بتخصيص ساعة أو اثنتين أسبوعياً، في السنة الجامعية الأولى، أو الثانية، لتدريس حدٍّ أدنى من لغة أجنبية حيّة وظيفيّة، تمكّن الطلبة والخريجين من الإفادة من المراجع العلميّة الأجنبية، للاطلاع على تقدّم العلم في العالم، وإكمال من يشاء منهم، دراسته العليا في جامعات البلاد المتقدمة، ولا نَنْسَ أنّ مناهج التعليم العامّ في أكثر مدارسنا يتعلّم فيها الطالب اللغة الإنكليزية أيضاً.

حضرات السيدات والسادة:

إن صحوة بعض الذين ما زالت تخامرهم الشكوك في حتميّة التعريب، آتية لا محالة، وإنّ تعريب التعليم الجامعي في العراق الآن، هو أفضل كثيراً مما كان عليه قبل عشرين عاماً، ولئن كان تقدّمه على درجات متفاوتة في جامعاته، فأملنا أن يبلغ مداه في السنوات القليلة القادمة، وأن تسير كليات الطبّ في الركب إن شاء الله.

- ونحن نتطلع إلى مستقبل مشرق يشمُلُ فيه التعريب جميع أرجاء الوطن العربيّ ، فيدرس الطالب فيها علومه بلغة أهله وقومه، لتتعزَّز فيه روح الثقة بالنفس، ومشاعر الاستقلال الفكري.
- نأمل أن لا يظلّ التعليم في أيٍّ من بلادنا العربية، عالةً على لغة أجنبية، مما يُشعِر الطالبَ والخِرِّيج، بالإحباط جرّاء اعتقاده بقصور لغته عن استيعاب العلوم، وتخلّف بلاده، ووهمه بأن العلم حَكْرٌ على أهل البلاد التي يدرس بلغتها.
- نتطلع إلى أن يتخفَّف الطالب من معاناة تلّقيه المحاضرات بلغة أجنبية، مما يفوّت عليه فهم الكثير من مادتها ، وأن توفِّر عليه الدراسة باللغة العربية، تحرِّي معاني الكثير من مفردات اللغة الأجنبية وتراكيبها، في المعجمات وكتب اللغة، وتوفِّر له الوقت الكافي لاستكمال تحضير المادة المنهجية، والقراءات اللامنهجية، وتقصّي المراجع.
- وأن ينمِّي مراس الأساتذة التدريس باللغة العربية، المقدرة على تهيئة الكتاب العلمي العربيّ الجيد، بالصورة التي تُلبّي متطلبات مجتمعنا، والاستمرار في إضافة الموادّ إليه، وحذف غيرها منه، على وفق مستلزمات تحسين المناهج الدراسية، وتطوّر حاجات المجتمع ، وغير خافٍ أنّ أكثر الكتب الأجنبية التي تُستعمل في بعض جامعاتنا، مُعَدٌّ لبلاد غريبة عن أهل هذه البلاد، ممّا يولِّد للطالب الحيرة والإرباك، بسبب التقاطع الكبير بين تفاصيل ما فيها، وما تتطلبه الأوضاعُ الاجتماعيةُ والاقتصادية في مجتمعنا النامي.

- نأمل أن يشجِّع تعريب التعليم الجامعي، خرّيجي مدارسنا الثانوية، وأكثرها الدراسة فيها باللغة العربية، على الإقبال على الدراسات الجامعية العلمية والتِّقْنيّة، التي نحن في أمسّ الحاجة إليها، ولا يعزِف كثير منهم عنها، تخوّفاً من صعوبات الدراسة بلغة أجنبية.

- وأن يُخرِج تعريب التعليم العلم من دائرته الضيقة في الجامعات، ليبسُط رقعته على أكبر عدد من أبناء مجتمعنا النامي، ويُسهم في نشر الثقافة العلمية في المجتمع، وتطوير المعارف التقنية لدى المواطنين، إذ لا بدّ أنه سيُفضي إلى تهيئة النخبة المتمكنة من إعداد كتب التبسيط العلمي، لنقل العلوم والتقنيات، إلى الجماهير الذين هم في أشدّ الحاجة إلى الثقافة العلمية والتقنية، ولا يبقى العلم حكراً على القلّة من الأساتذة والاختصاصيين، الذين يتقنون اللغة الأجنبية.

- وأن يُسَهِّلَ التعريب التفاهم وتبادل المعلومات والفكر، بين خرّيجي الدراسات التِّقنية والعلمية، والذين يتعاملون معهم في الحياة العملية، ويزيل الكثير من التقاطع المسبَّب عن التعليم بلغة أجنبية.

وختاماً: لئن كان الأساتذة الذين يدرِّسون باللغة الأجنبية، قد بذلوا جهداً كبيراً في تعلّم تلك اللغة وإتقانها، إبّان دراستهم وتحصيلهم، فكم هم أحرى ببذل جهدٍ أكبر في سبيل قضيةٍ يرتبط بها مستقبل الأمة، ونهضتها، وعزّتها، وسيادتها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المحاضرة الرابعة

"اللغة العربية والتعريب العلمي في تونس
في الحاضر ونظرة إلى المستقبل، قضايا وحلول"

الأستاذ الدكتور أنور الجراية
رئيس قسم الطب النفسي
مستشفى الهادي شاكر – تونس

السبت 17 محرم 1418هـ - 24 أيار 1997م

توطئة:

ازدهر الطب بالبلاد التونسية وبمدينة القيروان في غضون القرن التاسع ، وأشعّ بوساطة أعلام مثل ابن الجزار – وتواصل المشغل لاحقاً بوساطة بعض الأعلام مثل عائلة الصقلي، إلاّ أنّه منذ القرن الخامس عشر تسيّب الأمر نحو الشعوذة.

وأعيد بعث الطب بعد الاستعمار الفرنسي ، ولقد ساهم بعض الرواد في بعث الطب من جديد محاولين نشر المعلومات الحديثة بالبلاد التونسيّة – وفي هذا السياق نجد أسماء بعض الأطباء الذين ساهموا في توعية الشعب ومصالحته مع جذوره التاريخية وتراثه غداة صدمة الاستعمار.

كما نجد من حاول تبليغ المعلومات الحديثة بوساطة لغة الضاد وذلك بهدفين متكاملين: أولهما إثبات قدرة اللغة العربية على شحن وتبليغ العلوم الحديثة والعصرية، والثاني هو تبليغ هذه المعلومة إلى من كانت ثقافته عربية بحتة ، وعلى وجه الخصوص إلى خريجي الجامعة الزيتونية آنذاك ، ومهما يكن فإن هناك حركة ساهمت في بعث التوعية لدى الشباب التونسي المثقف.

وفي هذا السياق نجد مجلة "المباحث" التي بعثتها ثلّة من أبناء تونس البررة، ومنهم بعض الأطباء النفسانيين كانوا حسّاسين أكثر من غيرهم بقضايا الهويّة والنفس، ونجد في صدارة المعربين الدكتورين المغفور لهما الطاهر بن سلطان وهو عميد الأطباء النفسانيين التونسيين سناً والأستاذ الكبير سليم عمار في الجيل الموالي ولنا عودة لأبحاثهما ومحاولاتهما.

كما نجد في الحقول المجاورة من اهتم بمحاولة تبليغ العلوم الحديثة من فيزياء وكيمياء وعلوم طبيعة وذلك بهدف تبليغها إلى طلبة جامعة الزيتونة ممّا ساهم في تحديث وتأهيل برامجها لمواكبة العصور الحديثة.

وفي هذا السياق نجد بعض الأسماء مثل المنجي قوشة وغيره ، والجدير ذكره أن هذه المحاولات تواكب المعركة التحررية والدفاع عن الهويّة التونسية ضدّ مناورات المستعمر الهادفة إلى تعتيم الثقافة العربية مع مسخها بالدعاية المغرضة حول أصولها ، والهادفة إلى إقناع الشاب التونسي أن نجاحه ومآله الحتمي يتمثل في التطبيع الثقافي الفرنسي وربمّا اعتناق الجنسيّة الفرنسيّة.

إذن كان التعريب في بداية القرن يوازي عمليّة الكفاح ضدّ المسخ الثقافي مع الذود على الهوية التونسيّة في ركائزها العربيّة الإسلاميّة ، والحفاظ على جذورنا وأصالتنا، ولعب في هذا السياق التعامل مع الأخوة في المشرق عبر الصحافة ثم بوساطة الإذاعات المشرقية ومنها المصريّة دوراً مهماً ، ثم كان التواصل مع هذه البلدان الشقيقة بوساطة مزاولة الدراسة بالجامعات المشرقيّة كدمشق وبيروت والقاهرة وبغداد ، وكان له دور حاسماً في بعث روح التوعية والشعور بوحدة المصير لدى أبناء البلدان العربية.

لمحة تاريخية

ترتبط حركة التعريب بالحركة التحرريّة ومكافحة الاستعمار – ودون الرجوع إلى تاريخ النضال من أجل استقلال تونس فإننا نكتفي بالإشارة هنا إلى الارتباط الوطيد بين الحركتين ومساهمة العديد من المناضلين في بعث حركة التعريب ، وذلك دعماً للأصالة التونسية علاوة على النزاع بين السلفيين والمستحدثين.

ومهما يكن فإن حركة التعريب بدأت في أول المطاف بمحاولة النهوض باللغة العربيّة وتمكينها من شحن المعلومات الحديثة.

وفي هذا السياق جاءت تيارات التثقيف العلمي من الاختصاصي التونسي وصوب مواطنه وباللغة العربية ، وتحتلّ هنا بعض المجلات الثقافية مكانة متميّزة نخصّ بالذكر مجلة "المباحث" التي ساهم في إصدارها نخبة من الرواد التونسيين ومنهم المغفور له الدكتور الطاهر بن سلطان وهو عميد الأطباء النفسانيين التونسيين سناً كما أسلفنا.

كما ساهم العديد من الأساتذة التونسيين في تعريب مواد اختصاصاتهم كالعلوم الطبيعيّة مثلا – وهنا نلاحظ للتاريخ محاولات البعض ومنهم الأستاذ المنجي قوشة الذي نادى بتعريب الكيمياء انطلاقاً من ترجمة التصوّر باللغة الفرنسيّة ومستعيناً بوزن فعلن للدلالة على العناصر الكيميائية:

من ذلك اشتقاقه لبعض الأسماء

صدأن للأكسجين

موتن للنيتروجين (أداء للفرنسية "آزوت" وهو يعني نازغ الحياة حرفياً)

صفرن لعنصر "الكلور" أو "الكلورين"

إلا أنّه وفي حقل الكيمياء العضويّة والبيولوجية تأثّر إلى حد بعيد بالتسمية التقليدية الفرنسية للمادة وترجمها حرفياً في اشتقاق الاسم العربي من ذلك ألفاظاً مثل الحامض الزبدي (Acide butyrique) والحامض المغزي والمغزاوي (Acide caprique caproique) والحامض النملي (Acide formique).

وهذا عوضاً عن التسميّة الدوليّة والمبنية على الهيكل الكيميائي للمادة المسمّاة.

إلا أنّ هذه المحاولات لعبت دوراً تاريخياً مهماً على الصعيدين النفسي والاجتماعي كان أوضحه مقاومة المناورات الاستعمارية من جهة وبعث الثقة في الذات لدى طلبة الجامعة الزيتونة الدارسين بالعربية من جهة أخرى مما يسّر لاحقاً ربط الشمل بالالتحاق بالجامعات المدرسّة عربياً بالقاهرة أو بدمشق أو ببيروت.

أمّا محاولات تعريب الطبّ فيرجع الفضل فيها أساساً إلى زميلنا الأكبر الأستاذ سليم عمار من جامعة تونس ، ويندرج هذا المسار في منظوره ضمن مسار شامل يهدف إلى ردّ الاعتبار للهوية العربية ، ومقاومة ظاهرة التطبيع الثقافي والمثاقفة الأجنبية مما يؤثر سلباً على سلامة التخاطب وجدواه سيما وأن الطالب قد يقوم بمعادلة فكرية ضمنية مفادها أن الممارسة الطبيّة المجدية لا تقوم إلا على اللغة الفرنسية والأجنبية، وأن اللغة العربية لا تلعب إلا دوراً هامشياً: فلقد قال بعضهم آنذاك أن العربيّة لغة الأدب والغزل والشعر لا لغة العلوم.

وبادر الأستاذ سليم عمار سنة 1976 بتقديم محاضراته عربياً بكليّة الطب بتونس. ولقد كانت أول محاضرة له حول "الهذيانات المزمنة" واستُقبلت بأصوات صاخبة بين القادح والمادح– ولقد كان هذا الأستاذ يعرض على الطالب نص المحاضرة عربياً وفرنسيّاً ويمكّنه من أداء الامتحانات بكلا اللغتين.

وواكبه الزميل الفاضل عبدالكريم بالطيب وهو مدرّس جراحة الأعصاب آنذاك بالعاصمة التونسية في تقديم بعض المحاضرات عربياً ، إلا أنّ التجربة لم تعمّر طويلاً، وذلك أساساً لعدم تواجد خطّة واضحة وشاملة تقنن وتخطط بيداغوجيا التعريب وبيداغوجيا التخاطب بصفة أشمل.

ولقد انتهز الزميل سليم عمار فرصة إعادة تدريس شعبة علم النفس بكلية الآداب والإنسانيات بالعاصمة التونسية: فساهم في إرساء التدريس عربياً بالتوازي مع التدريس فرنسياً – ولقد استعان في ذلك ببعض المدرسين الشبان ومنهم خريجو جامعات المشرق بالبلدان الشقيقة.

أما بصفاقس فلقد ساهم زميلنا الأستاذ أحمد ذياب منذ قرابة عشر سنوات بتعريب علم التشريح وذلك بالنسبة للطلبة المبتدئين بالسنة الأولى – واصطدم بصخب المعارضين في صف الزملاء – ومنهم من رماه بشتى التهم.

كما أصدر المؤلفات والمعاجم في علم التشريح بثلاث لغات ، وذلك تيسيراً لمسار الطالب وسعياً وراء استيعابه للمعلومات.

ثم غادر هذا الزميل البار حقل التدريس بالجامعة لما اصطدم بسوء فهم بعض الجامعيين وبتغييرات في المناخ المهني وواصل عطاءه عبر التأليف والنشر والمساهمات في النوادي العلمية ، ومن ذلك مشاركته في تأليف "المعجم النفيس" ثلاثي اللغات في ألفاظ الطب النفسي.

وساهمنا بصفاقس في تعريب التدريس بالنسبة لشعب التمريض في محاضرات علم النفس الاجتماعي متوخين أسلوب زميلنا الأستاذ سليم عمار في تقديم الوثيقة الكتابية بكلا اللغتين حسب رغبة الطالب وذلك علاوة عن تدريسنا عربياً بكلية الآداب والإنسانيات بصفاقس لمادة علم النفس التربوي.

إلا أن هاتين التجربتين لم تعمرا طويلاً وتندرج ضمن المساهمات العديدة والرامية إلى إرساء لغة الضاد في منزلتها الطبيعية كلغة تعبير وحياة عند شعوب عديدة وذلك لكل أوجه الحياة بما في ذلك الحياة العلمية والتكنولوجية ، ويشترط هذا المسار إذا ما استهدف الاستمرارية والنجاح أن تعدّ العدّة قصد التنسيق بين كافة المساهمين مع التخطيط المحكم وذلك على صعيد العالم العربي بأسره: من ذلك أنّ مؤتمر الأطباء العرب بالقاهرة سنة 1988 نادى في ندوته حول تعريب تدريس الطب بأن تُحدث نواة بدمشق تسهر على تدريب المدرسين بكليات الطب باللغة العربية.

كما نادى بإعداد الخطط للتعريب الشامل وعلى مراحل، لأن التعريب لن ينجح طالما لم تتحد الصفوف حول أهدافه ومناهجه، سيّما في حقل المصطلحات والألفاظن ويكتسي الأمر حساسية خاصّة بين مدرسي البلاد المغاربية ومشاربهم فرنسية عموماً ومدرسي المشرق حيث تتصدر المشارب الإنجليزية علاوة على مشارب أوروبيّة أخرى كالفرنسية والألمانية وغيرها.

كما يكتسي الأمر حدة خاصة في مُشكلة تعريب المصطلحات العلمية كلما حاول المُعَرِب تأدية المدلول اللغوي بشموليته ضمن لغة المنطلق لا مدلوله الفتي والطبي فحسب ، ومن هنا تتأتّى الصعوبات بين الجناحين من المعرّبين، مثل الصعوبات والخلافات في تأدية كلمة Depression بلغة الطب النفسي عربياً ، فهناك من ينادي بلفظة "اكتئاب" وهناك من ينادي بلفظة "انهيار" معللاً موقفه بحسن أدائها للمدلول الاقتصادي لكلمة Depression فرنسياً.

وهنا لا بد لنا أن ندعو كل الأطراف إلى نوع من البراغماتيّة حتّى لا نضيع الوقت الثمين في النقاشات.

إذ مهما كانت أهميّة كلا الرأيين فلا بد لنا من الإقرار بأننا في وضع لا نحسد عليه، ويجدر بنا التخطيط لتجاوز العقبات دون إضاعة الوقت ولا هدر الطاقات في بعض القضايا التي لا تغدو أن تصبح جزئية مقارنة بالمسار العام.

æÇáäå ÇáãæÝÞ áäÌãíÚ

التعريب بتونس

ÊÚÑíÈ ÇáÊÏÑíÓ

المرحلة الابتدائية: معرّبة مع إدخال تدريس اللّغات الأجنبيّة بداية من الثالث الابتدائي: فرنسي وإنجليزي مع الإشارة إلى أن بعض المعاهد الخاصّة تدرّس اللّغات الثّلاث بداية من الأولى الابتدائي.

المرحلة الإعداديّة: تتّجه نيّة المشرّع إلى التعريب الشامل بما في ذلك المواد العلميّة وذلك رغم بعض الصعوبات ومنها تدريب المدرّسين على التعريب وتوفير الوثائق التدريسيّة المعرّبة.

المرحلة الثانويّة: لا تزال هذه المرحلة رهينة اللّغات الأجنبيّة وسوف يبدأ العمل المنظومة الجديدة بعد سنتين إن شاء الله حسب المنظومة الجديدة.

أمّا في المنظومة القديمة التي لا تزال معمولاً بها إلى غاية سنتين كما ذكرنا فإن تدريس كلّ المواد العلميّة يتمّ باللغة الفرنسيّة.

الجامعة: شملت عمليّة التعريب بالجامعة، كليّات العلوم الإنسانيّة والآداب من ذلك أن علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا والعلوم التربويّة أصبحت كلها معرّبة.

يبقى التساؤل حول بعض الاختصاصات التي تحتاج إلى إحدى اللّغات الأجنبيّة كعلم النفس في مراحله المتقدمة ، ولقد حاولنا التعاون في هذا المجال مع بعض البلدان الشّقيقة إلاّ أنّ الفوارق في اللغات الأجنبيّة المعتمدة تشكّل صعوبة.

أما كليّات الحقوق: فإنّ النقاش قائم بين أنصار التعريب وأعدائه: من ذلك أن الأمر انتهى إلى تأسيس كليتين للحقوق بالعاصمة التونسيّة: إحداهما تدرّس بالعربية والأخرى بالفرنسية.

أما الكليات الأخرى كسوسة وصفاقس فإن التدريس لا يزال مزدوجاً لكن بنسبة كبيرة للغة الفرنسيّة، علماً بأنّ الممارسة الميدانيّة بالمحاكم تتمّ عربيّاً.

أمّا الشعب العلمية والفنية كالطب والصيدلة والزراعة والهندسة فإنّ اللغات الأجنبيّة لا تزال مهيمنة رغم بعض المحاولات في التعريب ، ويستعمل كلّ

المدرسين اللغة الفرنسية إضافة إلى اللغة الإنجليزية المتداولة في الوثائق والمراجع العلميّة والمنشورات.

ويرى بعضهم أن التعريب لا يجدي (حسب قولهم) و أن المستقبل يفرض الاستعمال المكثّف للّغة الإنجليزية.

ولو أن الإطارات الزراعية مثلاً تتفاعل يوميّاً مع الوثائق الإداريّة بالعربيّة ومع الأعوان من مواطنيهم الناطقين بالعربية.

كليات التربية: لا يوجد بالمنظومة الجامعية التونسيّة "كلية التربيّة" بالمفهوم المتداول بالمشرق بل هناك بعض المعاهد الموازيّة منها:

- معاهد تكوين المعلمين.
- معاهد تكوين الأساتذة بالشعب العلمية من جهة وبالشعب الأدبية من جهة أخرى.
- معهد التكوين المستمر للمربين بالعاصة مع فروعه الجهويّة.

وغالباً ما نجد وضع الكليّات متبايناً حسب الاختصاصات: أ ي أن العلوم الإنسانيّة والآداب معرّبة والعلوم الصحيحة والتجريبيّة لا تزال تدرس بالفرنسية بتونس.

محاولات التعريب في العلوم والطب

كانت المحاولات الأولى في التعريب منذ بداية هذا القرن بتونس وجاءت على أيدي أولي الإطارات التونسيّة المتكّونين بالخارج.

ويندرج عملهم هذا ضمن نضال وطني يهدف إلى استرجاع الهويّة الوطنية التي استلبها المستعمر وحاول تدنيسها مشوهاً كلّ مقومات الأصالة الوطنية وجلّ المعطيات التاريخية المتعلقة بالبلاد.

واتجهت النّية إلى تطوير برامج التدريس بالجامعة الزيتونيّة التي كانت آنذاك المؤسّسة الجامعية الوطنيّة الوحيدة بالعاصمة مع فروع جهوية.

من ذلك أنّ المحاولات الأولى استهدفت طلبة الجامعة الزيتونيّة، وذلك قصد مدّهم بمعطيات علميّة حديثة وعصريّة تقدم عربيّاً ، ومن هنا يتم ربط التحاور وتوحيد الصفوف بين الطّلاب التونسيين علاوة على ردّ الاعتبار للغة الضاد.

فكانت المحاولات بالمدرسة السليمانيّة بالعاصمة التونسيّة وهدفت إلى تعريب مبادئ العلوم الصحيحة بوساطة التونسيين.

ونذكر على سبيل المثال : محاولات المنجي قوشة في تعريب الألفاظ في الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية ، والمغفور له الطاهر بن سلطان في الألفاظ الطبيّة ويهدف إلى التثقيف الصحي للمواطن التونسي ، وتمّ المسار هذا قرابة ثلاثين سنة أي بين الأربعينيات والسبعينيات ، وساهمت المجلات الوطنية ومنها مجلّة المباحث في بعث روح الثقة في الهوية التونسية ولغة الضاد. هذا علاوة على الترابط الذي حصل بالأخوة في المشرق مع الحصول على الكتب والمنشورات العربية من المشرق ومنها الصحف والمجلات المصرية، كما أنّ الترابط عريق بين مدينة صفاقس والإسكندرية والقدس الشريف ، فهناك الجاليات التونسية بكلا البلدتين ولا يزال سوق المغاربة قائماً بالإسكندرية ، وساهمت كلّ هذه العوامل في دعم التواصل بين الأشقاء رغم الصعوبات أحياناً.

وبعد استقلال تونس بدأ التعاون الجامعي بين تونس والجامعات الشقيقة بالمشرق ومنها أن خريجي الجامعة الزيتونيّة واصلوا تكوينهم بالجامعات المصريّة والسورية والعراقية واللبنانية ، وطرحت قضية التواصل والتخاطب بين الجامعيين

وقضية توحيد المصطلحات لأن محاولات التعريب المنفردة أدت إلى صعوبات كبرى حول مداليل المصطلحات، مما يعرقل التخاطب والتواصل كما هو معروف، وبعثت هياكل التنسيق المعروفة وساهم فيها بعض الجامعيين التونسيين.

ÇáãÍÇæáÇÊ Ýí ÇáØÈ

في منتصف السبعينيات بادر الزميل سليم عمار وهو عميد الأطباء النفسيين الجامعيين، بادر بإلقاء المحاضرات بالعربيّة ، وكانت أوّل محاضرة له هي: "الهذيانات المزمنة" ، وذلك بالنسبة لطلبة السنة الخامسة من الحلقة العامة من الأطباء، وزامنه الزميل عبدالكريم بن الطيب في جراحة الأعصاب وتواصل المسار بين القدح والمدح.

وقام زميلنا البار سليم عمار بربط الصلة بجلّ الزملاء بالعالم العربي ثم ببعث الجمعية المغاربيّة للطب النفسي وساهم في تعريب تدريس علم النفس بكلية الآداب بالعاصمة، إلا أنّ الصعوبات والمعارضات لعبت دوراً لا يستهان به في هذا المجال لسنوات.

وبعد مضي قرابة عشر سنوات جاء زميلنا أحمد ذياب بصفاقس بتعريب علم التشريح بكلية الطب بصفاقس ودرس هذا العلم مستعيناً ببعض الزملاء من القاهرة، نخص بالذكر منهم الأستاذ توفيق الرخاوي، واصطدم هو الآخر بالصعوبات ممّا أدى به إلى مغادرة الحقل الجامعي مع مواصلة مساره كما هو معروف.

أما فيما يخصنا نحن: فلقد بدأنا بالعمل الميداني، فعربنا أدوات التخاطب مع القضاة ومع المربين: من ذلك أننا عربنا محاضرات الطب النفسي للقضاة وتقارير الاختبارات النفسية الطبية والشرعية، كما قمنا بمسار مواز بالنسبة للأسرة التربوية في محاضرات الصحة النفسيّة للتلميذ اليافع.

وحاولنا كذلك تعريب الوثائق الإدارية الطبية والمراسلات ، ثمّ عربنا دروس علم النفس المجتمعي بالنسبة لطلبة الشعبة الطبابيّة بجامعة صفاقس ، ودرسنا علم النفس التربوي والصحة النفسية بكلية الآداب وباتجاه أساتذة الغد للمعاهد الثانوية ، كما درسنا وألقينا المحاضرات للأساتذة المتمرسين ضمن حلقات التكوين المستمر.

وكلّ هذا بالعربية طبعاً ، وننشر المقالات بالعربية بالمجلات التونسية وبمجلة "الثقافة النفسية" المتخصصة ببيروت، كما نشرنا المعجم النفيس وهو ثلاثي اللغات ونعتزم لاحقاً تعريب الشهادات الطبية.

ÕÚæÈÇÊ ÇáÊÚÑíÈ

يجابه مسار تعريب العلوم الطبية سلسلة من الصعوبات لعلّ أهمّها:

- صعوبات ميدانية تتمثّل في المصطلحات وتوحيدها وتداولها.
- صعوبات في نفسية بعض المدرسين وبعض الطلبة حول "النقص التكويني للغة الضاد"، وهو موقف استعماري مفاده أن لغة الضاد عاجزة عن تبليغ العلوم الحديثة وذلك بصفة "هيكلية " أو ضمنية إن صح التعبير أي بمعنى أن محاولات تطويرها محكوم عليها بالفشل مسبقاً وبدون ريب ولا شكّ.
- مشكلات ترتيبية وميدانية تتمثّل في صعوبة التنسيق بين المدرسين في الميادين المرتبطة والمتجاورة حتى يتم التنسيق ، إذ لا يعقل أن يعرب علم التشريح وحده مع بقاء علم الفزيولوجيا باللغة الفرنسية مثلاً، أو أن نعرب الطب النفسي ويبقى طب الأعصاب من جهة والطب الشرعي من جهة أخرى يدرّس بالفرنسية، وهكذا...
- صعوبات تتأتى منذ البداية أي منذ مرحلة التكوين العام للطالب ، فمراحل التعليم السابقة كالإعدادي والثانوي لا تمكّن الطالب من الاستيعاب ولا من التعبير القويم عن المقصود وذلك بحكم ضعف الزّاد اللغوي عموماً وفي أوجهه التعبيرية على وجه الخصوص، وهذا ما يدفعنا على التساؤل حول خطّة تربوية وتعليمية عربية تجمع كافة البلدان العربية وتضبط مقومات التعليم والتربية في رؤوس أقلامها بما في ذلك استعمال اللغات الأجنبية حاليّاً ومستقبلاً ، مع تبادل الطلبة والمدرسين بين البلدان حتى يتمّ التلاحم بين أهل الميدان لأنّ الشعور بوحدانية الانتماء يتمّ وينمو في صفوف الجامعات لدى الشباب.
- صعوبات التواصل بين البلدان العربيّة بحكم استعمال اللغات الأجنبية والنشر بهذه اللغات وبمجلات تابعة لبلدان أجنبية.

– قضية المستوى ومواكبة المعلومات الحديثة: ونجيب هنا أنّ جلّ البلدان وفي حقل الطب تدرس الحلقات الأولى بلغة البلاد (السويدية بالسويد مثلاً والهولندية بهولندا) على أن يتم تقديم المعلومات الحديثة والمتطورة باللغة الأجنبية وهي الإنجليزية في غالب الحالات.

المقترحات والحلول المتصوّرة

طبعاً إنّ كلّ عربيّ يأمل استعمال اللغة الأم في التخاطب عموماً والتخاطب العلمي على وجه الخصوص، إلا أن الواقع يوميّاً لم يسمح بعد بذلك.

غير أنّ قضية التعريب قطعت أشواطاً لا يستهان بها:

فلقد تمّ الحسم في الأقاويل المغرضة والمدّعيّة باستحالة التعريب وعجز لغة الضاد عن تبليغ المعلومات الحديثة والعلمية ، فلقد جاء تعريب المراحل الابتدائية والثانوية كما جاء تعريب التعليم الجامعي في بعض شعبه على الأقل ، لقد تجاوزنا المرحلة الاستعماريّة حيث كان المستشرق الفرنسي يدرس النحو العربي على طلبته التونسيين باللغة الفرنسية وموصياً إياهم بقراءة مؤلّف عربي صادر بدمشق عن أحد تلاميذه السوريين.

– لقد تمّ تعريب شعب الآداب والعلوم الإنسانية في جلّ البلدان العربيّة.

– كما تمّ تعريب تدريس الحقوق لدى بعض البلدان بينما بقيت بعض البلدان الأخرى في وضع مزدوج.

ÝæÞÏ ÊÓÇåã ÇáãÌáÇÊ في بعث تفكير ميداني عربي عربي Ýí ÍÞá ãÞÇÑäÉ ÇáÞæÇäíä ãËáÇð ãÚ ÊÌÇæÒ ÞÖíøÉ ÇÎÊáÇÝ ÇáãÔÇÑÈ ÇáÃÌäÈíÉ ãä ÌåÉ æÇáÊÑÇË ÇáÅÞáíãí ãä ÌåÉ ÃÎÑì.

بقي التساؤل حول تعريب العلوم والتقنيات التجريبية أو الصحيحة كما يقول بعضهم، وهنا نجد المعارضين الكثيرين: فمنهم من يرى أنّ في التعريب هدر طاقات وأنّ مواكبة المستجدّات تحتم الانضمام إلى العالم المصنّع مع اعتماد اللغة الإنجليزية للجميع، ويتعلل هؤلاء بصعوبات وآجال النشر للتراجم العربية مما يحتم تفاوتاً زمنياً لتبليغ المعلومة عربيّاً وفرنسياً وإنجليزياً.

وهذه المسألة تشكّل إحدى حجج مناهضي التعريب وأعدائه ، ودعواهم أنّ عمليّة التعريب وإن تمت فإنّ جدواها سوف تكون منقوصة إن لم نقل عكسيّة.

واقتراحاتنا تتمحور حول ما يلي:

- الدعم والتنسيق بين مجهودات المدرسين العرب والجامعات.
- السهر على بعث نشاط علمي وجامعي عربي على منوال الجامعات الناطقة بالألمانية بين العديد من البلدان.
- السهر على تكثيف التخاطب بين الجامعات والجامعيين العرب داخل العالم العربي وخارجه حتى لا ننسى عرب المهجر ومساهمتهم.
- دعم الهويّة العربية والنهوض بها لما لها من مزايا عامّة وجمّة ومنها التفاعل الإيجابي مع التعريب.

فالشعور بالانتماء وبالهوية العربية يشكّل دافعاً هامّاً للذود وللدفاع عن مقومات الهوية اللغوية والثقافية.

كما أنّ هذا الشعور نفسه سوف يدفع أهله إلى الذود على هويتهم ومقاومة التثاقف والتطبيع الأجنبي ومناورات الثقافات المهيمنة.

وهذا الشعور عينه سوف يمكّن الفرد من استعمال اللغة الأجنبية مثل إحدى أدوات العمل عندما يكون الشخص متأصلاً لغوياً وحضارياً.

"تكوين العقل السليم في الجسد السليم"

"ومن لم يطلع على الماضي تحتّم عليه تكراره" (بما فيه من هفوات)

لا شك أن الوسائل لدعم التعريب عديدة ويطول الخوض فيها:

ونقدم هنا بعض رؤوس الأقلام:

- دعم المسار التربوي بتكوين رجل الغد تربوياً لا مجرد عمليّة الشحن بالمعلومات الفنية.
- دعم مقومات الهوية المجتمعية والثقافية لبعث روح التجذّر والانتماء، وهذا لا يتمّ إلاّ عبر النهوض بتدريس اللغات والإنسانيات كالتاريخ والجغرافيا والإنترويولوجيا...
- دعم الشعور بالترابط وبالانتماء بين أبناء العالم العربي عبر وسائل التواصل وذلك خصيصاً بين أجيال الغد من أطفال وشبّان وطلبة والسهر على تنسيق البرامج الدراسيّة في المراحل الأولى بين الدول العربية.
- دعم روح التكامل والتعاون بين الجامعات.
- تشجيع الجامعيين المعربين قولاً ومضموناً وذلك بتمكينهم من القيام بمهامهم دون عراقيل.
- دفع ودعم روح التعاون مع الجامعيين العرب بالمهجر.
- بعث مؤسسات جامعية عربية لا تنتمي إلى دولة واحدة وقد تكون "اقليميّة" (مغاربيّة مثلاً) مع السهر على دعوة الجامعيين والباحثين العرب بالمهجر إلى المساهمة في التدريس بها ، وهو أحد النماذج الذي وظفته إسرائيل للنهوض بجامعتها:
- دعم وسائل النشر والترويج والتوزيع العربي.
- الاتفاق على المصطلحات والانضباط في التحرير بها.
- تبادل الطلبة والجامعيين بين الدول العربية.

قضية دعم الهوية لدى الشباب العربي

تغذية شعور الشاب العربي بالانتماء:

مدّه بالزاد التكويني والمعرفي الشافي والكافي دون تجاوز الحد.

- تجنب شحن الأدمغة.
- تجنب إشعاره بأنّ الجيل الأسبق يناور بهدف "مصادرة هويته الناشئة" وهذا ما يشعر به بعض اليافعين لما يلح الكهول عليهم في مدهم بالنصائح وبالتوجيهات.
- عدم إشعار اليافع بأن هويته "موجودة" أو "مسحوقة" من مخططات الكهول لأنه ينشأ آنذاك على التخلّي والانهزام وعدم الشعور بالمسؤولية.
- مساعدة اليافع على التعامل مع الغزو الثقافي المفروض والمتسلط يومياً عليه ممّا يحدث لديه الصراعات العديدة ، ولقد يحسم البعض منها بصفة ارتجالية وعشوائية إذا ما ضايقه الكهل بالتوجيهات الملحة والمحاصرة لهويته – فلقد يلجأ اليافع إلى التطبيع الثقافي الأجنبي هروباً من محاصرة الكهول تربوياً ويقوم بمعادلة بسيطة.

هوية الأجداد تعني المضايقة

هوية الشمال والغرب: الإغراء بالتسامح وبالحرية والتحرّر.

وفي هذا خطر على هوية الأجيال والمجتمعات.

من الملحوظ أن بعض أبناء إفريقيا يفضلون العودة إلى فرنسا بعد اصطدامهم بمشكلة هويتهم الوطنية على أثر عودتهم لأرض الوطن بعد التخرج الجامعي.

قضية حياة اللغة العلمية العربية:

كل لغة لا تساهم في الإنتاج العلمي مهددة بالتراجع في حقل المعلومات وعلى هذا الأساس فإنه من الأهميّة بمكان أن يعيش المسار التعريبي على أساس الإنتاج العلمي بلغة الضاد.

وقد يكون هذا الإنتاج عن أبحاث ميدانية وغالباً ما يتعلل بعضهم بكلفة البحث العلمي مادياً وبشرياً لينادي بعدم جدوى البحث العلمي لا في البلدان العربية ولا بلغتها.

وهذا موقف مغرض ومردود عليه إذ لكل بلاد إمكانيات في الإنتاج العلمي فالبحوث الأساسية تتطلب حقاً أموالاً وعتادات طائلة قد لا تتوفر إلا ببعض المراكز الدولية.

إلا أن البحوث الميدانية العديدة تبقى في متناول بلدانها، مثل البحوث اللغوية والاجتماعية، والبحوث الزراعية المتركّزة على مناخ البلاد، والبحوث الطبيّة والطبيعية البيطرية والصيدلانية ، فقد تُعتَمد الدراسات الميدانية فتفيد وتستفيد خصيصاً من ميزات بعض البلدان، فالمساهمة الميدانية التونسية في تدارس بعض الأمراض ميدانياً أصبحت مرموقة ، داء بهجت أو داء العضلات مثلاً– وذلك استناداً إلى المعطيات الميدانية التي أثبتتها هذه الدراسات ومنها ما تم بالتعاون الدولي إلا أن هناك جانباً آخر هو التخاطب العلمي بلغة الضاد وهذا يشترط مساهمة المنتجين في التعريب.

– بعث المراكز البحثيّة العربية .

– التسهيلات في النشر .

– جلب الباحثين العرب في المهجر إلى المساهمة في البحث والتدريس بالبلاد العربية.

– دعم إمكانيات التواصل والتخاطب عربياً بين الجامعات.

– بعث علاقات التعارف بين الجامعيين.

- نشر دليل للجامعات وللمؤسسات البحثية بالبلاد العربية.
- تبادل الطلبة بين الجامعات.

المحاضرة الخامسة

اللغة العربية والتعريب العلمي في السودان
في الحاضر ونظرة إلى المستقبل، قضايا وحلول

الأستاذ الدكتور دفع الله الترابي

رئيس اللجنة العليا للتعريب/ السودان

السبت 24 محرم 1418هـ 31 أيّار 1997م

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين وصلى الله على عبده ورسوله سيدنا محمد وعلى جميع آله وصبحه وسلم تسليماً كثيراً.

السلام عليكم أيها الجمع الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته

وبعد:

فاسمحوا لي في مستهل حديث إليكم أن أزجي وافر الشكر والتقدير إلى مجمع اللغة العربية الأردني على ما يقوم به عمل رائد وجهود متصلة في خدمة اللسان العربية وأن أخص بالشكر رئيسه الأستاذ العلامة الدكتور عبدالكريم خليفة على ريادته لهذا المسعى الحميد، وإنه ليُسعدنا في الهيئة العليا للتعريب بالسودان أن نكون من بين من شارك في محاضرات الموسم الثقافي الخامس عشر لهذا المجمع.

كذلك أجد لزاماً علي من قبل أن أنصرف إلى موضوع محاضرتي أن أغتنم فرصة مثولي أمامكم لأعرب لجمعكم الكريم عما يختلج في أفئدة إخوانكم السودانيين من تقدير عميق وشعور طيب بالمودة والإخاء نحو الأردن الشقيق ممثلاً في مؤسساته وجماعاته على وقفتهم الباسلة مع أهليهم في السودان في ساعة العسرة.

فالتحية لكم سائلين الله أن يُعزَّنا وإياكم بالإسلام وينصر عباده الصالحين في كل مكان، والله غالبٌ على أمره.

أما موضوع محاضرتي فهو كما حدده خطاب الدعوة عن "اللغة العربية والتعريب الجامعي في السودان– في الحاضر مع نظرة إلى المستقبل".

ولمّا كان هذا الموضوع يحتمل مباحث متشعبة رأيت أن أجعل الحديث في أمر اللغة العربية مقتصراً على العوامل التي أدّت إلى عروبة السودان ثم أجعل سائر حديثي من بعد منحصراً في شأن التعريب الجامعي في السودان في حاضره مع نظرةٍ إلى مستقبله.

فأقول وبالله التوفيق ،،،،

متى عرف السودان اللغة العربية؟

إن السودان قد عرف اللغة العربية منذ زمن قديم عن طريق هجرات عربية سابقة لدخول الإسلام إليه، فقد جاء خبر ذلك في عددٍ من المصادر الموثوق بها رغم أن كتابات المحدثين عن تاريخ السودان غالباً ما تتجاوز الحديث عن البدايات الأولى لاستعراب السودان، وقد لخص الإداري المؤرخ ماك مايلك في الجزء الأول من كتابه الشهير "تاريخ العرب في السودان" مجمل ما انتهت إليه الدراسات في هذا الشأن بالعبارة التالية – والترجمة بتصرف من عندي:

"لقد أصبح من الحقائق التي لا خلاف عليها أن استيطان العرب المسلمين في السودان أدَّى إلى تغيير عميق في الأصول العرقية لسكانه الأصليين، بيد أن هذه الحقيقة الأولى لا يجب أن تحجب الحقيقة الثانية التي تتساوى معها في الأهمية وهي أن القبائل العربية كانت منذ زمن بعيد قبل ظهور الإسلام تعبر (من جهة الشرق)، إلى السودان ثم إلى مصر".

فالسفر على شواطئ البحر الأحمر الشرقية والغربية كان في الماضي أمراً ميسوراً بل إن التجار العرب وصلوا في ذلك الزمان الباكر إلى نهر النيل من جهة الشرق، وكانت المنطقة إلى جنوب مصر تعد منطقة اختلاط بين العرب والسكان الأصليين، حيث استق كثير من العرب العابرين عن طريق أريتيريا والبحر الأحمر في السودان لكونه الأقرب إلى طبيعة بلادهم.

ولعل انهيار سد مأرب في الزمان الماضي كان بمثابة الانفجار الكبير الذي فرق القبائل اليمنية أيدى سبأ وبعد بين أسفارهم في أيما اتجاه، فمنهم من عبر إلى السودان عن طريق الحبشة، ومنهم من واصل سيره إلى الغرب في أقصى الشمال الإفريقي، كما فعل إفريقس بن ابرهة ذي المنار وهو الذي غزا السودان من جهة الحبشة وواصل سيره إلى بلاد المغرب ابتنى فيها مدينة إفريقس التي نسب إليها اسم القارة.

ويؤيد كل من المسعودي وابن خلدون الرأي القائل بأن قبائل صنهاجة في شمال إفريقيا هي من أصول حميرية.

وفي كتاب "عروبة البربر" لصاحبه محمد علي مادون تفصيل مفيد للهجرات العربية لأرض إفريقية لمن أراد المزيد، هذا وإن الصلة القديمة بين الحبشة وجنوب الجزيرة العربية أمر معلوم للكافة.

ولعل فيما ذكرنا ما يعزز نظرية حديثة للأستاذ الدكتور عبدالله الطيب حيث يقول: إن هجرة المسلمين الأولى من مكة المكرمة إلى أرض الحبشة كانت في حقيقتها هجرة إلى أرض السودان، إذ إن إقليم الحبشة عندئذ كان يمتد حتى الشلال الرابع على نهر النيل الرئيسي شمال الخرطوم، ويدلل الأستاذ الدكتور عبدالله الطيب بشواهد من خبر المهاجرين المسلمين في الأرض التي حلّوا بها، وقد شايع الأستاذ الدكتور عبدالله الطيب في نظريته هذه جماعة بعضهم من تلاميذه، والله أعلم حيث ذلك كان!

الهجرات العربية بعد الإسلام

أمَّا موجات الهجرة العربية التي أدت بالفعل إلى عروبة السودان فقد جاء معظمها بعد دخول الإسلام إليه في عهد الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ثم لمّا قُتل عمر وتولّى الخلافة عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى بدلاً عنه ابن أبي سرح الذي أرسل ابنه عبدالله إلى السودان غازياً لتنتهي حمتله إلى إقامة عهد بينه وبين رُماة الحدق من ملوك دنقلا في شمال السودان وذلك بعد تناوش، عرف هذا العهد "بمعاهدة البقط" التي أمنت للمسلمين حقهم في الإقامة وممارسة شعائرهم وعدم التقرض لهم من حد أرض أسوان شمالاً إلى حد علوة جنوباً.

بعدها توالت هجرات القبائل العربية المسلمة إلى السودان على مر القرون التالية وعبر العهود الإسلامية المختلفة لتستقر القبائل الوافدة على ضفاف النيل، ثم اضطرهم ضيق الأرض إلى التوغل جنوباً في محاذاة النيل ثم انتشروا شرقاً إلى أن التحموا بقبائل البُجا، ثم اتجهوا إلى أواسط السودان وهناك وجدوا أرضاً واسعةً قليلة السكان أجواؤها تضاريسها شبيهة بأحوال الجزيرة العربية وبها من أسباب العيش ما يجعلها خير مستقر لهم، وتواصلت الهجرات العربية متوغلةً في السودان جنوباً وغرباً إلى أن صدتهم طبيعة الأرض والمناخ الاستوائي وكثافة السكان من القبائل النيلية من أن يصلوا إلى عمق القارة (في جنوب السودان) أو إلى خط الاستواء فاتجه بعضهم غرباً إلى شمال دار فور وإلى تشاد.

وهكذا تشكلت المنطقة العربية في السودان كما نعرفها اليوم وقامت لهم فيها ممالك وإمارات ودويلات كانت في البداية مستقلةً، بعضها عن بعض.

وقد أدّى توطّنُ العرب في السودان ومخالطُتهم للسكان الأصليين إلى انتشار الإسلام وغلبة اللسان العربي في شمال السودان ووسطه، على أن بعض اللهجات

السودانية القديمة لم تندثر إلى اليوم لا سيّما في المناطق الأقل اختلاطاً بالعناصر العربية.

وفي الحقيقة استمرت الهجرات العربية الكبيرة تصل إلى السودان حتى القرن الثامن عشر، مثل قبائل الرشايدة والزبيدية الذين حلّوا في شرق السودان.

على أنه كانت تصل إلى السودان عن طريق حدوده الغربي جماعاتٌ أخرى من بلاد المغرب ومن بلاد شنقيط في تطوافهم لأجل الدعوة أو في طريقهم إلى الحج، كثيرون من هؤلاء استقروا بالسودان وكونوا أسراً جاليات ظلت معروفة إلى حين أن انصهرت وأصبحت بعضاً من النسيج العربي في السودان.

كذلك جاءت إلى السودان وفادة كبيرة من دول غرب إفريقيا لا سيما من قبائل الهوسا المسلمة من شمال نيجيرا حلّوا في بِقاع متفرقِة من السودان.

دولة الفنج بالسودان (أو السلطنة الزرقاء)

لعل أهم ما حدث من تطور هُويَّة السودان وعروبته منذ أن أصبح مهاجر القبائل العربية من جزيرتهم كان قيام دولة الفنج في سنة 1505م حيث خضعت لها المنطقة العربية في السودان بأسرها.

واتخذت دولة الفنج مدينة سنار في وسط السودان عاصمةً لها، وبسطت سلطانها شمالاً إلى حدود مصر.

ولقد انمحت في عهد دولة الفنج آثار المدّ المسحي الذي سبق إلى السودان لا سيما بعد فتح آخر معقل لسلطان المؤسسة المسيحية بالسودان بسقوط عاصمتهم الجنوبية سوبا التي تقع على مرمى حجر إلى الجنوب من مدينة الخرطوم.

لقد كان من أظهر سمات دولة الفنج لسانها العربي والتزامها بالإسلام ديناً وشريعة وسلوكاً.

- فقد انتشرت في عهدها مدارس حفظ القرآن وحلقات تعليم الفقه وكثرت مقامات العلماء والأولياء ممن اشتهروا بالعلم والزهد والصلاح – حتى أصبح يشار إلى عهد الفنج كلّه بعهد الصالحين.
- وقد حوى كتاب الطبقات لود ضيف الله تراجم لعدد كبير من مشاهير العلماء وأهل الكرامات في ذلك العهد، وسادت من السودان من قراءات القرآن رواية الدوري عن أبي عمرو بن أبي العلاء، واشتهر بينهم المذهب المالكي في الفقه والطريقة القادرية بين المتصوفة، واتخذت دولة الفنج لها رواقاً في الأزهر عرف برواق السِّنارية، وأقاموا أوقافاً لهم بالمدينة المنورة ورثتها من بعدهم الحكومات السودانية.

السودان في عهد دولة الفنج

(السلطنة الزرقاء)

وكانت دولة الفنج على صلة وثيقة بجميع العواصم الإسلامية من حولها.

- وظلت دولة الفنج مستقرة لأكثر من ثلاثمئة سنة حيث زالت دولتهم في سنة 1821م (إحدى وعشرين من القرن التاسع عشر الميلاد) عن طريق الغزو العثماني (التركي المصري).
- ومن الحقائق التي لا مراء فيها عندي:
- إن العروبة والإسلام توطناً في السودان وشكلا قبلته الفكرية وانتماءه الحضاري بفضل الثوابت التي أرستها دولة الفنج، وهي بحق تعد الدولة العربية المسلمة الأولى في السودان.
- ومن العجب أن تجد بعض الكتاب والمؤرخين في شك من أصول الفنج ودولتهم ويتساءلون أهم من العرب أم الزنج من القبائل النيلية أم هم من بني أمية الذين هاجروا إلى السودان بعد سقوط دولتهم؟

بينما أخبار دولة الفنج حية في ذاكرة الأمة وملوكهم معروفون واحداً واحداً بأسمائهم العربية وبأقوالهم وأفعالهم المسنودة بمدونات ومخطوطات، حيث لم يمض على انتهاء دولتهم على يد الغزو العثماني زمن الطويل (انظر: تاريخ السودان لنعيم شقير – تحقيق: أبو سليم، وكتاب السودان عبر القرون لمكيي شبيكة).

العهد العثماني

مهما يكن فبعد زوال دولة الفنج سنة إحدى وعشرين من القرن التاسع عشر الميلادي (سنة 1821م) استطاع الحكم العثماني أن يوسع من سلطانه في السودان وأن يمد حدوده جنوباً إلى خط الاستواء وصولاً إلى منابع النيل في البحيرات الاستوائية التي هي الآن جزء من دولة يوغندة.

– وقد مهدت هذه الفتوح إلى وصول اللغة العربية والإسلام إلى جنوب السودان، وإلى شمال يوغندة.

– ولمّا أن وقعت مصر تحت النفوذ الأجنبي عُيِّن غردون باشا المبشر الإنجليزي حاكماً عاماً على السودان، وجلب هذا معه مستشارين له من أهل ملته وبذلك أصبح الوالي على السودان من غير المسلمين بل من أهل الكبد لهم.

– فلقد استفز هذا التعيين مشاعر المسلمي وأدى سوء السياسة والإدارة إلى قيام الثور المهدية في السودان ثم انتصاره في عام 1885م.

– ومرة أخرى عادت الدولة السودانية إسلامية المظهر والمخبر وعربية اللسان ولكن دولة المهدية شغلت بالحروب والمشكلات الداخلية، والكيد الخارجي الذي أدى إلى زوالها هي أيضاً في سنة 1898م، بوساطة جيوش الغزو الأجنبي (الإنجليزي المصري)، وهكذا دخل السودان في نير الاستعمار الحديث "الإنجليزي فعلاً والإنجليزي المصري حكماً" وهو (أي السودان) عربي اللسان يدين سكانه بالإسلام، باستثناء بعض القبائل النيلية الوثنية في جنوبه وحتى هؤلاء فقد أصبحت اللغة العربية وسيلة للتخاطب فيما بينهم وذلك لتفرد كل قبيلة منهم بلهجاتها الخاصة.

– فماذا صنع الاستعمار بلغة أهل السودان العربية بعد أن استتب له أمر الحكم؟

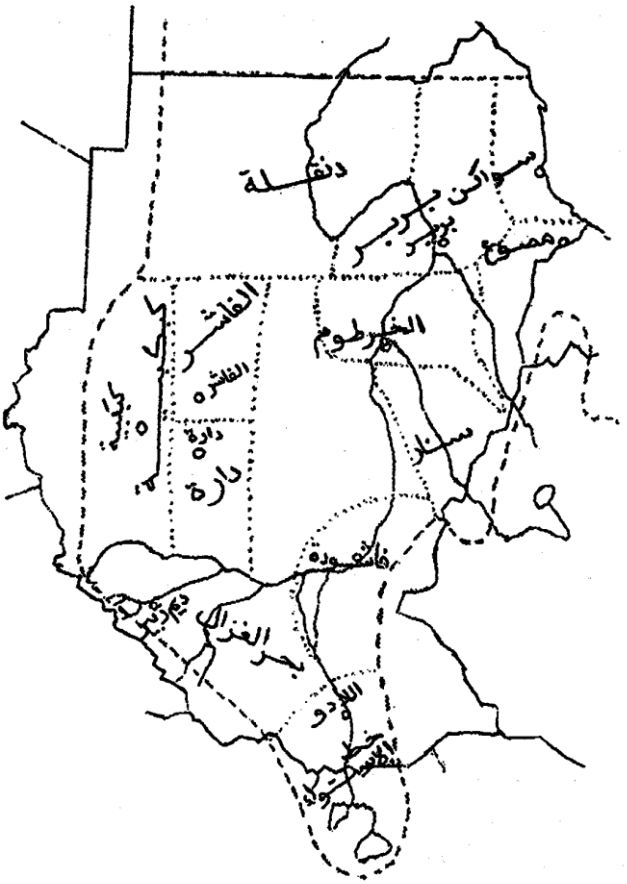

مديريات السودان في العهد العثماني

حدود السودان الحالية ———

حدود السودان في العهد العثماني - - - - - -

حدود المديريات .....

اللغة العربية في عهد الحكم الأجنبي (الحكم الثنائي)

لم يكن للغة العربية حظ كبير في مؤسسات التعليم الحديث التي أنشأتها دولة الحكم الثنائي في السودان مع بداية القرن العشرين، حيث كان الاعتماد على اللغة الإنجليزيةِ بوصفها لغة الحكم الرسمية، فليس عجباً أن استعملت اللغة الإنجليزية لتدريس جميع مناهج المرحلة الثانوية من التعليم العام ما عدا مادتي الدين واللغة العربية، واستمر الحال كذلك إلى نهاية الحكم الأجنبي بعيد منتصف هذا القرن العشرين.

وفي عهد الحكم الثنائي كان العمل في غالب دواوين الدولة مرتبطاً بمعرفة اللغة الإنجليزية التي هيمنت مع طول فترة الاستعمار على كثير من أنواع التعامل وأوجه النشاط التجاري والاقتصادي، كما أخذت تسيطر على بعض منابر الثقافة العامة في البلاد، ثم سن الحكم الثنائي قانون المناطق المقفلة ليحاصر اللغة العربية والدين الإسلامي ويحد من الأثر العروبي في شمال البلاد من أن ينمو ويتقوى في الجنوب، بينما أطلق للكنائس من كل ملة حرية التبشير وإقامة المدارس التنصيرية بدعم مالي يؤخذ في كثير من الأحايين من موارد الشمال المسلم– فتأمل!

كذلك لمّا قامت بعض مؤسسات التعليم العالي في السودان في الفترة بين الحربين العالميتين اعتمدت اللغة الإنجليزية لغة التدريس لجميع المناهج سوى قلة من التخصصات التي لا سبيل لأدائها بغير اللغة العربية، على أنه كان هناك معهد علم عالي للدراسات الإسلامية، أنشأه نفر من كبار مشايخ الدين في عام 1912م – ليكون على غرار الأزهر– حين أحسوا الخطر على الهوية الإسلامية، وقيم الدين من أن تُضيَّع تحت النظام التعليمي الجديد، ولكن دولة الحكم الثنائي لم تعارض قيام هذا المعهد كما أنها لم تأبه به كثيراً حيث لم يكن للمتخرجين منه حق

معلوم في العمل بمؤسسات الدولة، وهو المعهد الذي تطور فيما بعد استقلال السودان إلى جامعة أم درمان الإسلامية.

– ورث السودان المستقل في عام 1956م هذه الأوضاع، وسرعان ما عرّبت الحكومات الوطنية دواوين الدولة، كما عربت مناهج المرحلة الثانوية في التعليم العام واستردت اللغة العربية مكانتها فيما سوى التعليم العالي الذي ظلت مناهجه جميعها تدرس باللغة الإنجليزية باستثناء أقسام الشريعة واللغة العربية.

ولم يكن السودان بدعا في هذا الشأن بين البلاد العربية إذ إن أكثرها حتى التي لم تقع تحت الحكم الأجنبي المباشر ظلت مؤسسات التعليم العالي فيها تعول في التدريس على اللغة الأجنبية فرنسية كانت أم إنجليزية.

ويستثنى من ذلك سوريا التي التزمت العربية لغة للتعليم العالي منذ عام 1919م عقب انهزام قوى المحور في الحرب العالمية الأولى وذهاب الحكم التركي العثماني عنها.

ولقد شارك السودان على مدى الأربعين سنة الماضية في ملتقيات المجامع العلمية العربية، وفي مؤتمرات التعريب التي عقدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وتكررت قرارات المؤتمرات وتوصياتها بأن التعويل على اللغة العربية في تدريس العلوم الحديثة فيه منطلق للعقول واستقلال لها من التقليد، وتمكين لها من الإبداع والاختراع، ذلك أن اللغة هي طريقة للتفكير بقدر ما هي وسيلة للتعبير وأن المقلد تابع متخلف، لكن رغم توصيات المؤتمرات بحتمية التعريب فإننا لا نجد انعكاس هذه التوصيات على واقع التعليم العالي إلا في القليل.

حاضر التعليم الجامعي في السودان

في شهر فبراير (شباط) من عام 1990م، أصدرت الدولة السودانية قراراً سياسياً بإلزام جميع مؤسسات التعليم العالي باستعمال اللغة العربية لتدريس المناهج ولم تستثن أحداً.

ورغم أن القرار اتخذ بوعي كامل لواقع التعريب على مستوى العالم العربي وبعد موازنة لإمكانات تطبيقية إلاّ أن صدوره أحدث دوياً هائلاً بين أساتذة الجامعات وإدارتها واستعظمته طوائف أخرى من عامة المثقفين في السودان.

فقد وضع القرار السياسي حين صدر حداً فاصلاً للجدل العقيم المطوّل حول قضية التعريب في السودان ونقلها من طور الهم والنظر إلى حيز الفعل والنفاذ، علماً بأنه في محاذاة قضية التعريب كان هنالك حوار دائر في الساحة السودانية بين دعاة التأصيل وطوائف أخرى من الداعين إلى أنواع من المذهبية المتأثرة بمكتسبات فترة الاستعمار من الأفكار الدخيلة.

ومع هذا فقد تركت الدولة لأهل الجامعات كيفية استيعاب هذا القرار في مؤسسات التعليم العالي السودانية.

فأخذ التعريب حظّه من نقاش مستفيض في مؤتمر جامع تبعته ندوات متخصصة حول مستقبل اللغة الأجنبية ومستقبل اللغة العربية في التعليم العالي.

وأنشئت الهيئة العليا للتعريب لتكون أداة للتنسيق والمتابعة، وقام لها مجلس مؤلف من مديري الجامعات أو ممثليها بالإضافة إلى عدد من المتخصصين في التعليم العالي واللغة العربية، كما أنشئ في هذه الأثناء مجمع اللغة العربية في السودان (وهو الخامس تأسيساً بين المجامع العربية)، وقام مركز للترجمة الإسلامية بجانب ما كان موجوداً قبلاً في بعض الجامعات من وحدات الترجمة والتعريب، فهذه إذن جملة من المنابر المستحدثة لمساندة هذا التحول الكبير.

من خلال حوار قاصد طور منهج تطبيق التعريب على مؤسسات التعليم العالي بالسودان، ولكن من قبل أن نستعرض من التفصيل معالم منهج التعريب يجدر بنا أن نتعرف على آراء المناهضين له والعقبات التي يرتكزون عليها في دعواهم بعدم تطبيقه أو تأجيله، فهم يشيرون إلى العقبات التالية:

١ -عدم توحيد المصطلح العلمي والاختلاف حوله.

٢ -التعريب يعزل الدارس عن علوم الغير ومعارفهم والعرب في هذا الزمان ليسوا أهل ريادة علمية لا سيما في علوم التقانة.

٣ -ضعف المكتبة العلمية العربية في تخصصات كثيرة.

٤ -مصادر العلوم الحديثة موجودة في اللغات الأجنبية فلِمَ عدم الأخذ منها مباشرة.

فلنستصحب إذن هذه العقبات ونحن نستعرض أهم معالم منهج التعريب الجامعي في السودان وقضاياه.

معالم منهج التعريب الجامعي بالسودان

1- التدرج في التطبيق

– وهذا أمر قد كان، فلقد بدأ تعريب مناهج السنة الأولى في جميع جامعات السودان في العام الدراسي 1991/1990.

– ثم تصاعد التعريب في المنهاج الدراسي عاماً بعد فعاماً، ليكتمل في أربع أو خمس أو ست من السنوات حسب طول المنهاج المقرر لنيل الدرجة في التخصصات المختلفة، وفي هذا التدرج تيسير على الأستاذ والطالب لاستيعاب مقتضيات التحول المنشود.

– ومنذ سنة 96/95 أخذت تتخرج بتوفيق الله الأفواج الأولى من الطلاب الجامعيين الذين تلقوا مجمل دراساتهم باللغة العربية، وذلك في الكليات العلمية والمهنية مثل الهندسة والبيطرة والطب والزراعة وعلوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات وعلوم الأرض، فضلاً عن العلوم الإنسانية مثل الجغرافية والاجتماع والاقتصاد التي كانت تدرس قبلاً باللغة العربية.

– وهكذا فقد بلغت مسيرة التعريب إحدى غاياتها في إحلال اللغة العربية بدلاً عن اللغة الأجنبية لتدريس المناهج الجامعية، على أن مقاصد التعريب تتعدى مجرد مخاطبة الطلاب باللغة العربية في قاعات الدرس، والعبرة في أن يوطَّن العلم والتقانة الحديثة في الأرض العربية ولنستنبط بها فهماً وإلفةً ومعايشةُ وابتكاراً وإبداعاً، كما قال شحادة الخوري.

2- الفصحى الميسرة لغة التدريس

– تقرر أن يلتزم الأساتذة بالفصحى الميسرة في التدريس الجامعي تفادياً للفظ العامي المبتذل أو الحوشي الغريب المستعصي، وذلك أدعى لأن يحترم الطالب العلم الذي يتلقاه كما أنه يرفع من مستوى لغة الكتابة والخطاب لدى الطالب والأستاذ معاً.

3- دراسة مواد في اللغة الأجنبية

تقرر أن يدرس جميع طلبة الجامعة على اختلاف تخصصاتهم أربعة مقررات في اللغة الإنجليزية، بمعدل مقرر في كل عام لأربع سنوات، ليكون من ذلك نافذةٌ على علوم الغير ولتمكينهم من طلب المعلومة في مظانها من المصادر الأجنبية.

فلا حجة لمن يقول بأن التعريب يعزل الطالب عن مسارات العلم الحديث على نطاق العالم.

4- دراسة مواد في اللغة العربية

كذلك تقرر أن يدرس الطالب الجامعي أياً كان تخصصه أربعة مقررات في اللغة العربية؛ لتمكينه من التعامل بلغة عربية سليمة في حوار الدرس وعند ممارسته العمل بعد تخرجه، وإلى مثل هذا تشير توصيات مجمع اللغة العربية بالقاهرة في ختام دورته الثالثة والستين لسنة 1997م.

5-الأبقاء على الرموز والصيغ الرياضية على هيئاتها الأجنبية

تقرر الإبقاء على الرموز والصيغ الرياضية على هيائتها في اللغة الأجنبية تيسيراً على الطالب والأستاذ في هذه المرحلة، وإلى أن تعتاد ألسنتهم على أنواع التعبير العربي العلمي السليم وإلى أن تنشأ بينهم وبين الاصطلاحات الجديدة الإلفة والوئام.

6- لجان التعريب بالجامعات

تقرر أن تُكوّن لجانٌ للتعريب في جميع الكليات والأقسام العلمية، وأن تنشأ إدارات للتعريب في كل جامعة يعين لكل منها مدير بدرجة عميد كلية، ويمثل مدير إدارة التعريب جامعته في مجلس الهيئة العليا للتعريب، هنالك إذن خطوط واصلة بين الأستاذ والهيئة عبر كليته أو إدارة التعريب بجامعته.

والتنسيق أصبح بتوفيق الله قائماً على وجه حسن بين الهيئة وإدارات الجامعات.

قضايا وحلول

لنقف الآن على بعض قضايا التعريب ومشكلاته التي صاحبت تطبيقه في السودان والحلول والوسائل التي اتبعت في معالجتها.

القضية الأولى هي:

1- الأستاذ الجامعي:

لقد كان الأستاذ وليس الطالب هو المشكل الأول في مسألة التعريب في بدايات تطبيقه.

فقد كان خلف ذلك:

- دراساتهُ الجامعية السابقة التي تلقاها جميعاً باللغة الأجنبية.
- محاضراته المصاغة جميعاً من مصادر أجنبية فهو يلقيها على الطالب بذات التعابير والصيغ العلمية التي تلقاها بها ولا تقع عليه مسؤولية في الصياغة أو حجبتها.
- خشيتُه من المجهول فهو لم يسبق له أن درس فضلاً على أن يكون قد درَّس مادته العلمية باللغة العربية، وهو واثق من تفوقه على الطالب في اللغة الأجنبية بحكم دراساته العليا بالخارج، ويفقده التعريب هذه الميزة.
- هناك طائفة "الرافضة" من الأساتذة المخذِّلين لإخوانهم يهولون لهم مشكلات التعريب، وانفراط الأمر عند تطبيقه، وأن الارتداد عنه لا بد آتٍ مستقبلاً.

ولكن القرار السياسي – وتلك هي ميزتُه– قد حمل الناس على هذا الأمر سواءٌ، المعارض منهم والمؤيد، وسرعان ما اكتشف كثير من الأساتذة أنفسهم في اللغة العربية وأدركوا أن مقدراتهم الكامنة تتفوق على حقيقة معرفتهم المحدودة في اللغة الأجنبية.

ولقد أكسبهم الفكاك من أسر اللغة الأجنبية تحراً في الفكر وثقةً بالنسف واعتماداً على الذات.

فهاهم اليوم قد أقبلوا على أعمال الترجمة والتأليف بعد مضي ست سنوات فقط من بداية تطبيق التعريب، حيث بلغت جملة مؤلفاتهم المنشورة التي تحت الطبع أو الإعداد مئة وخمسين مصنفاً أو تزيد بينما لم تصدر فيما نعلم عن الأساتذة الجامعيين في السودان كتب في مجالات العلوم الحديثة على مدى الأربعين عاماً الفائتة أي منذ إنشاء الكليات العلمية في السودان، ولئن كان فاتناً شيء مما قد كتبوا فهو بلا ريب لا يبلغ معشار ما قد أنجز في بضع سنوات بعد التعريب.

وليس غير حاجز اللغة من سبب لذلك القصور أو هذا التطور.

ومن حسنات التعريب الظاهرة الباهرة ازدياد معرفة الأساتذة بلغتهم وتفقههم فيها كما أنهم ازدادوا علماً في تخصصاتهم العلمية، فمسؤولية التأليف تستوجب عليهم التدقيق والضبط والإحاطة.

ولقد تحقق من هذا النشر العلمي بعض أهداف التعريب في توطين هذه العلوم في اللغة العربية وتقريب المعرفة العلمية من الكافة وإتاحتها لهم ليأخذ كل منهم حسب حاجته أو طاقته.

وهذه ثمرة لو لم يكن من فائدة للتعريب إلاّها لكفته.

ومما تجدر الإشارة إليه أن زاحمت حركة التعريب في السودان تطورات كبيرة أخرى ألقت بأعباء إضافية على أساتذة الجامعات، فقد توسعت الدولة في إنشاء الجامعات حتى بلغ عددها خمسة أضعاف ما كانت عليه قبل التعريب، فهي الآن ثلاثون جامعة غير الكليات الجامعية الأهلية، كذلك ازداد عدد الطلاب المستوعبين في مؤسسات التعليم العالي في كل عام، فمن نحو خمسة آلاف طالب في عام 1989م، إلى أكثر من ثلاثين ألفاً في عام 1996م، وكان على الأساتذة بجانب استجابتهم لمطلوبات التعريب أن يقوموا بإدارات هذه الجامعات كلها والتدريس بها، فانخفضت نسبة الأساتذة إلى الطلاب إلى ما دون المعدلات المتعارف عليها، وتسعى الدولة الآن لتدارك هذا النقص بشتى الوسائل، كما اتخذت تداير معينة للتقليل من آثار هذه المفارقة على الدراسات الجامعية.

القضية الثانية هي:

المصطلح العلمي– تعريبه وتوحيده:

لا يزال تعريب المصطلح العلمي وتوحيده هو مدار حركة التعريب على امتداد الوطن العربي.

تتعاون عليه مجامع اللغة العربية ومراكز التعريب وهيئاته وتقوم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعمل كبير في هذا الصدد عن طريق مكتب تنسيق التعريب، وذلك بإصدار المعاجم الموحدة لمصطلحات العلوم في المجالات المختلفة.

ولقد شهدت العقود الأخيرة زيادة كبيرة في المنشور من الكتب العلمية وقواميس المصطلحات بحيث شملت هذه المؤلفات مختلف مجالات العلوم الحديثة.

وهذه الذخيرة من المعاجم والكتب العلمية هي التي هيأت النجاح لحركة التعريب في السودان.

قد جعلت الهيئة العليا للتعريب في السودان أمر المصطلح العلمي على رأس اهتماماتها ذلك ان الجامعات أصبحت في مواجهة حقيقة مع الحاجة المماثلة للمصطلح المعرب في التدريس.

لذلك أقبلنا على صناعة المعاجم الموحدة للمصطلحات في علوم الأساس والعلوم التطبيقية، وكانت الغاية أن، نوحِّد اللغة العلمية داخل السودان في الأقل.

– وألزمنا أنفسنا بالأخذ بجميع ما أجمعت عليه المعاجم العربية من مصطلحات حيث لا مجال لقطرية أو شعوبية في شأن اللغة فهي (العربية) لغة القرآن وخزانة قيم الدين والموروث الحضاري كله، وهي من أكبر عناصر توحيد الأمة واجتماعها.

– كذلك ألزمنا أنفسنا بذات المعايير والقواعد التي أقرتها مجامع اللغة العربية لاختيار المصطلح، من تفضيل الكلمة الفصيحة على المعربة، والكلمة الواحدة

على الكلمتين، التي تقبل الاشتقاق على الجامعدة إلى آخر ما هو معلوم في هذا الباب.

ولكن حين وقع الاختلاف حول المصطلح في مصادره المختلفة أو متى ما لم نجد ترجمة أو تعريباً لمصطلح بعينه اجتهدنا للأخذ بما نقدره أفضل الوجوده لمقابلة المصطلح الغائب أو المختلف عليه، ثم أثبتنا اختيارنا في المعجم الخاص بذلك.

وفي هذا الصدد أصدرنا:

معجم الفيزياء الموحد.

معجم الكيمياء الموحد.

معجم الرياضات الموحد.

والمعجم الموحد لمصطلحات الحاسوب تحت الطبع

ومعجم علوم الأرض تحت الطبع

والطبعة الثانية من معجم الرياضيات الموحد.

كما أصدرنا معجماً في الاصطلاحات الجامعية العامة التي تدور بين مجالس الجامعة وهيئاتها.

وهناك عدد آخر من المعاجم في مراحل مختلفة من الإعداد.

ولقد هدانا الله لأن نجعل صناعة المعجم شركةً بين الهيئة وإحدى الجامعات السودانية ثم يندى على أهل ذلك الفن في كل الجامعات ومراكز البحوث ليشتركوا جميعاً في لجان الإعداد والصياغة، فهم إذن ملزمون بعدئذ بالمصطلحات المشمولة في المعجم لأجل التدريس أو التأليف.

وتشترك الهيئة العليا للتعريب في جميع ندوات التعريب وتقدم الدراسات على مشروعات المعاجم التي يبعث بها مكتب تنسيق التعريب بالمغرب توطئة لإجازاتها لاحقاً في مؤتمرات التعريب الجامعة التي تدعو إليها المنظمة.

تعريب المصطلح العلمي وتحيده رهين باستعماله في التدريس فإذا ما التزمت جامعات عربية أخرى بالتعريب فمن المأمول أن يتحقق التوحيد المصطلحي

المطلوب في وقت قصير، ذلك أن الاختلاف القائم الآن حولها إنما هو القليل (الذي لا تزيد نسبته على العشرين في المئة).

ثم إن استعمال المصطلح وتداوله هو الذي يكشف ضعفه أو قوته والمصطلح يتطور بالمراس التداول ويُهجر المفضول منه ليبقى الأصلح وهذه سنة متبعة منذ القدم.

فقد كان يقال لمقابلة المصطلح الأجنبي:

Pendulum– بندول– وتطورت اللفظة إلى– رقاص ثم إلى– نواس

وكذلك في : Computer كمبيوتر تطورت إلى حاسب إلكتروني ثم إلى حاسوب.

وفي المصطلح Spring– قيل عنه ياي – ثم إلى – نابض.

وقديماً كان الأسلاف يقولون أرثماطيقا ثم قالوا علم الحساب، وقالوا ابتداء روطاريقا ثم ترجمت إلى الخطابة.

ذلك كان مذهبهم في حركة الترجمة الأولى في الإسلام فقد تجاوزوا أخطاء المترجمين سواء في اللغة أو المسميات المصطلحية وبعد أن يستوعبوا الأفكار المنقولة يعودون لإصلاح أخطاء النقل في اللغة أو في الإصطلاحات.

وكانت القاعدة ألاّ يكون المصطلح حجر عثرة في حركة نقل العلوم إلى العربية،

وقد أشار إلى مثل ذلك الدكتور جميل الملائكة في محاضرة سابقة لهذا المجمع.

ومما هو جدير بالملاحظة أن وجود الترادف في مقابلة بعض المصطلحات لا يضر بالتعريب، فالترادف أمر واقع في اللغات العلمية العالمية فيقولون في الإنجليزية للهوائي: aerial كما يسمونه antenna.

ويقولون:

Cross girders, transverse beams, floor beams, secondary beams.

"روافد متقاطعة أو عارضات ثانوية أو أعتاب مستعرضة".

فإذا ما قلنا عوز الدم أو نقص الدم أو فقر الدم في مقابلة anemia أنيميا فلا يجب أن يترتب على هذه الترجمات سوء فهم.

فاللغة العربية إلصاقية اشتقاقية وإمكانيات التوليد فيها كبيرة جداً ولك في المجاز والتركيب المزجي والنحت والإبدال والقلب والحذف في تعريب اللفظ ما يسعفك بمدد غزير من الألفاظ للتفريق بين المعاني المتقاربة وليس هنا مجالٌ للتمثيل لجميع ذلك.

ولكنَّا وجدناً من خلال الممارسة أنه مما يعين على اختيار المصطلح بجانب شروط الترجمة المعهودة (وهي: المعرفة اللصيقة باللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها والإلمام بالمادة المنقولة وبفنيات تعريب اللفظ) ضرورة أن يضاف عليها شرط آخر، هو "شرط الجماعة".

– فالجماعة من نحو خمسة من المختصين هم أقدر على التحري وأحرى أن يقعوا أو يقع أحدهم وهم مجتمعون على المصطلح المعبر أو الحد الجامع المانع – من ضرور الاجتهادات الفردية.

وكذلك "الاستحسان" فإن له دوراً هاماً في اختيار المصطلح، فكثيراً ما ينفر الناس من بعض المصطلحات بل قد يستهنونها رغم كونها من الكلم الفصيح، ولقد نفر بعض أطبائنا في السودان نفوراً كبيراً من كلمة "المعثكلة" التي جاءت في المعجم الطبي الحديث لمقابلة لفظة بنكرياس الأجنبية، أثاروا حولها ضجة كبرى وحررت حولها مقالات طوال في الصحافة المحلية.

وزاد الطين بلة كلمة "خمج" وهي أيضاً بالمعجم الطبي الحديث في مقابلة المصطلح الأجنبي Infection وهذه وتلك كادوا بهما أن يزهدوا الناس في المعجم المتفرد الذي أجمع غالب أساتذة الطب في الوطن العربي على كونه المصدر الأساسي لمصطلحات العلوم الطبية.

وبعض الأطباء نجدهم من أشد المناهضين لحركة التعريب، ولعل أن تخفف من غلوائهم مجاهدات هيئة الصحة العالمية لإقليم الشرق الأوسط التي لا تزال ترمي بثقلها من أجل تعريب مناهج الطب في الجامعات العربية قبيل نهاية هذا القرن.

ومما أفدناه... في السودان من تجربة وضع المصطلح عدم التقيد بحرفية النص الأجنبي عند وضع مقابلة، بل يكون التركيز على المدلول العلمي، وهي الترجمة بالمعنى على طريقة حنين بن إسحاق شيخ النقلة في عهد الترجمة الأول، فعلى سبيل المثال نجد هنالك من ترجم المصطلح الأجنبي angel echo بالعبارة "صدى ملائكي" والمراد حقيقة أنه صدى مجهول المصدر فلو قيل في مقابلة angel echo "صدى مبهم" لكان أولى.

ووجدنا أنه للتفريق عند وضع المصطلحات متقاربة المعنى لا بد من استعراض جميع هذه المصطلحات المتقاربة معاً.

فهاذ مثال لعدة مصطلحات متقاربة في المعنى:

زيغ	Aberration
حيدان	Deviation
انتقال	Translation
إزاحة	Displacement
تشوه	Deformation
تشويه	Distorsion

تحركات	movements
انزياح، سهم	Deflection
تغيرات	Changes
انحراف	Sway
حيود	Diffraction

وهذا مثال آخر من هندسة المياه:

تدفق، جريان	Flow
جريان، انسيابي	Flow, steam line
جريان مستقر	Flow, steady
جريان غير مستقر	Flow, unsteady
جريان مضطرب	Flow, turbulent
جريان عابر	Flow, transient
تدفق طامي	Flow, sugre

مهما يكن فصناعة المعاجم عمل مستمر ويمكِّن من تدارك اللفظ المفضول في الطبعات اللاحقة للمعجم لذلك جعلنا في السودان لجنة دائمة من الأوصياء لكل معجم، ليضطلعوا بمراجعته وتحديثه وإعادة طبعه ليواكب حركة العلوم المتطورة.

الكتاب المنهجي المقرر

صعوبات الحصول على الكتاب العلمي المنهجي المعرب لعدد من المواد الدراسية كان من بعض مشكلات التعريب الجامعي في السودان عند بدايته، ولتدارك هذا النقص سعت الجامعات السودانية للحصول على حاجاتها من كتب المناهج من لدى الجامعات السورية والعراقية ذات التجربة الطويلة الممتدة مع قضايا التعريب، وهكذا حصلت جامعات السودان على جزء كبير من كتب المناهج بل حصلت عليها بأسعار رمزية أو عن طريق الإهداء ثم تبارك جامعات السودان في تزويد مكتباته بالكتب العلمية من جميع المصادر المتاحة.

–وقد لاحظ الأساتذة وقوع الاختلاف بين مجموعات الكتب التي حصلوا عليها من حيث عدم التزام المؤلفين بمصطلحات المعاجم الصادرة من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، كما أن هناك فروقاً بينها في مستوى الطباعة والإخراج حيث بعضها صدر في طبعات قليلة التكلفة ليكون في متناول الطلاب غير الموسرين.

– فإذا ما أخذت جامعات عربية أخرى بتطبيق التعريب فإن الكتاب العلمي العربي سيجد رواجاً كبيراً، فهو سيصبح متاحاً لمئتي مليون عربي أو قل لجامعاتهم ومثقفيهم، وهذا التفاعل الواسع مع ازدهار سوق الكتب سوف يكون من العوامل التي تؤدي إلى الطفرة العلمية المنشودة إن شاء الله.

– لابن خلدون رأي طريف حول الكتاب الدراسي يحسن الوقوف عنده فهو يقول: "إن كثرة التصانيف مضرة بالمتعلم"، وذلك من اختلافاتهم في المنهج والبراهين وتفريعاتها مما يشوش على المبتدئين، وعندي أنه بالنسبة لطلاب الدرجة الأولى "أي الإجازة الجامعية" يحسن الالتفاف حول كتب مختارة متدرِّجة مع تقدم الطالب في دراساته، أما المتخصصون وطلبة الدراسات العليا الذين يبغون اصطياد

الشوارد ودقائق النكات فليس عليهم ألا أن يطلعوا على مصادر متعددة وإن اختلفت.

– ويبدو أن طريقة المتقدمين في تدريس النحو أو العلوم الإسلامية مثل الفقه كانت مؤسسة على هذا النهج الذي أشار إليه ابن خلدون.

– لا يزال هذا سعيُ كثيرٍ من الجامعات شرقاً وغرباً بالاعتماد على كتب مقررة لكل مادة في مستوياتها المختلفة، النقطة الجوهرية في هذا الأمر هي التدقيق في تخصيص بعض الكتب المقررة للمواد الدراسية والثبات عليها مع إدخال التعديلات التي تقتضيها طبيعة العلوم الكونية المتطورة.

كتب المراجع والأمهات

المكتبة العلمية العربية في حاجة ماسة للكتب المرجعية الشاملة للأصول في العلوم المختلفة – كما هي بحاجة إلى الموسوعات العلمية التي تواكب تسارع علوم التقانة الحديثة.

وهنا لا بد أن نحمد لمجمع اللغة العربية الأردني عنايته بترجمة عدد من المصادر المعرفية ونشرها، وهي جميعاً على درجة عالية من الجودة في الطباعة والإخراج، ومما يبشر بخير أن عدداً من المجامع ومراكز التعريب اتجه إلى سد هذه الثغرات بتبني الترجمة لكتب المراجع والموسوعات العلمية وعسى أن يتم تنسيق في هذا الأمر ربما على مستوى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لتفادي تكرار الجهود ولضمان تمويل خاص لتحقيق هذه الغاية.

تقويم تجربة التعريب السودانية

أجرت الهيئة العليا للتعريب في أواخر عام 1996م، تقويماً شاملاً لمسيرة التعريب في مؤسسات التعليم العالي بالسودان منذ الالتزام بمقتضيات القرار السياسي الصادر في شهر فبراير من عام 1990م.

استند التقويم على تقارير وردت من عشرين جامعة سودانية شملت كبرى الجامعات والجامعات الحديثة التي اكتملت الدراسات فيها إلى السنوات النهائية في منهاجها.

وقد حوت التقارير ردود الجامعات على محاور محددة بحيث تمكن من التقويم السليم لحصيلة تجربة التعليم في السودان.

جاءت محاور التقيوم كالآتي:

١ -شمول التعريب للمناهج الدراسية في كليات الجامعة وأقسامها المختلفة.

٢ -المشاكل التي واجهت التعريب من حيث:

أ -وضع الأستاذ.

ب -الكتاب الجامعي.

ج -المصطلح العلمي.

د -أي عقبات أخرى.

٣ -تقويم مدى استيعاب الطلاب للعلوم باللغة العربية مقارنة بمستويات الطلاب قبل التعريب.

ثم أجرى مجلس الهيئة نقاشاً واسعاً حول فحوى التقارير واستعراض جميع ما تجتمع لديه من البيانات الأخرى ذات الصلة بهذا التقويم، وخلص إلى نتائج وتوصيات نكتفي منها بخلاصات موجزة على محاور التقويم.

شمول التعريب

أخذ المجلس علماً بأنه قد اكتمل تعريب مناهج الدرجة بالجامعات السودانية جميعها في التخصصات العلمية الآتية:

١ -**علوم الأساس:** الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء والموارد الطبيعية.

٢ -**العلوم التطبيقية:** الهندسة والزراعة والطب البيطري وعلوم الأرض.

٣ -**علوم الطب:**

أ -اكتمل تعريب مناهج الطب في جامعات: الجزيرة وأم درمان الإسلامية وشندي وأعالي النيل وكليتي طب الأسنان والصحة في جامعات الخرطوم.

ب -لم يكتمل تعريب الطب في: كلية الطب بجامعة الخرطوم وكلية الصيدلة بجامعة الخرطوم. حيث اقتصر فيهما على السنة الأولى وبعض المواد في السنوات المتقدمة.

ج -تستعمل اللغتان العربية والإنجليزية في تدريس الطب في جامعتي كردفان والزعيم الأزهري.

4- **العلوم الإنسانية:** اكتمل تعريب مناهج العلوم الإنسانية في الجامعات السودانية- مثل الاقتصاد والاجتماع والجغرافيا والتاريخ وغيرها.

الجامعات بجنوب السودان

قلة الأساتذة الذين يجيدون اللغة العربية حدّ من شمول التعريب في اثنين من الجامعات الثلاث بجنوب البلاد، مما جعل تطبيق التعريب غير مكتمل فيهما، ومن المأمول أن تمكن التدابير المتخذة من تجاوز عقبات التعريب في هاتين الجامعتين أو في غيرهما في وقت قصير إن شاء الله.

الجامعات والكليات الأهلية

مؤسسة التعليم العالي الأهلية ملزمة هي أيضاً بسياسة التعريب ولقد استجاب العدد الأكبر من هذه المؤسسات استجابة كاملة لقرار التعريب ولكن بعضها لم يلتزم بالتعريب جزئياً أو كلياً لأسباب مختلفة.

المصطلح العلمي

عبَّرت الجامعات من خلال تقاريرها عن المصطلح العلمي لم يعد مشكلة تعوق التدريس باللغة العربية لأي من مناهجها.

– وأشارت إلى غير ذلك جامعتان فقط.

– يصح القول بأن مسيرة التعريب في السودان قد تجاوزت مشكلة المصطلح العلمي، وما كان يعزى إليه من عقبات وغرابة أو كونه غير موحد أو غير محكم.

الكتاب المنهجي

أشارت بعض التقارير إلى أن الحاجة ما زالت قائمة إلى تيسير أمر الحصول على العدد المناسب من الكتاب المنهجي في بعض التخصصات، وهذه مسألة تتعلق بحجم الاعتمادات المالية لبند في ميزانيات الجامعات، كما تتعلق بسهولة الحصول على الكتاب المنهجي في المكتبات أو دور النشر المحلية.

الأستاذ الجامعي

عبّر مجلس الهيئة عن إشادته بالدور المبدع الذي قام به أساتذة الجامعات وإدارتها في ترجمة سياسة التعريب إلى واقع ماثل رغم الأعباء الإضافية بسبب اختلال نسبة الأساتذة إلى الطلبة في الجامعات.

– كما تقرر أن تكون من المسؤولية على كل أستاذ جامعي تأهيلُ نفسه للتدريس باللغة العربية في مجال تخصص.

مدى استيعاب الطلاب للعلوم باللغة العربية

– اجتمعت تقارير الجامعات على أن استيعاب الطلاب للعلوم باللغة العربية فاق بقدر ملحوظ ما كان عليه استيعابهم قبل التعريب.

– وقد انعكس ذلك إيجاباً على نتائج الامتحانات.

– يشير الأساتذة إلى أن التعريب أفضى إلى التمكين من تدريس المادة المقررة في فترة تقل عما هو متاح لها في الجدول الدراسي ما مكنهم من التوسع في محتوى المادة وزيادة التحصيل.

– والنتيجة أن المستويات ترتفع بالتعريب ولا تنخفض به.

أصدر مجلس الهيئة التوصيات التالية من خلال تقويمه لتجربة التعريب:

١ – أ– لم يعد هناك مبرر لتدريس أي من مناهج الإجازة الجامعية أو الدبلوم بغير اللغة العرربية في جميع مؤسسات التعليم العالي السودانية.

ب – إن التصديق لإنشاء أي جامعة أو كلية أهلية ينبغي أن يكون مشروطاً بالالتزام الكامل بسياسة التعريب في التدريس.

ج – ينبغي اتخاذ التدابير اللازمة للتقيد التام بمقتضى قرار التعريب في المؤسسات السودانية القليلة التي لم يكتمل فيها تعريب المناهج.

٢ تشجيعاً لحركة التأليف يوصي المجلس بمضاعفة مكافآت الأساتذة على أعمال التأليف والترجمة لسد الحاجة القائمة من كتب المناهج الدراسية.

٣ – التقدم بمذكرة للجامعات السودانية في شأن اعتماد الكتب المؤلفة والمترجمة (وفق نصوص لائحة التأليف والنشر التي أعدتها الهيئة مضافاً إليها أية شروط أخرى تضعها الجامعات)، ضمن مفردات البحث

العلمي عند النظر في ترقية أعضاء هيئة التدريس لمرتبتي الأستاذ والأستاذ المشارك.

التعريب لما بعد المرحلة الجامعية

٤ – يوصي المجلس بأن يتم التنسيق مع الهيئات والجمعيات العلمية والمؤسسات المهنية في البلاد لاعتماد اللغة العربية في جميع أنواع التعامل وفي الممارسات المهنية بها.

نظرة إلى المستقبل

1- اكتمال التعريب

لقد اكتمل بفضل الله لتعريب في السودان من حيث إحلال اللغة العربية بدلاً من اللغة الأجنبية في تدريس جميع المناهج الجامعية (الاستثناءات المحدودة في قلة من الجامعات يمكن تداركها في وقت قريب إن شاء الله باتخاذ تدابير مناسبة).

المرحلة القادمة هي مرحلة التجويد والإتقان ورفع الكفاية العلمية في الجامعات والمعاهد العليا.

2- الدراسات الوجب القيام بها لدعم سياسة التعريب والتمكين لها في المستقبل

أ- الرموز العلمية

إذا كان تعريب المصطلح العلمي وتوحيده يعد المرتكز الأول في توطين العلم الحديث في اللغة العربية، فإن إحكام كتابة الرموز العلمية والصيغ الرياضية باللغة العربية يعد المرتكز الثاني في مسألة التعريب، إذ من دونه يصبح التعريب عملاً ناقصاً ومبتوراً.

ذلك أن علوم التقانة كالهندسة وعلوم الرياضيات والفيزياء لا سبيل لتعلمها دون أن تستخدم الرموز.

فإذا ظلت الرموز في أشكالها الأجنبية في طيات الكتاب العربي فإن ذلك يحدث تشويشاً على القارئ وتداخلاً مشيناً بين اللغتين دعت مجامع وهيئات عيدة بضرورة التخلص منه.

نصت التوصية السادسة من توصيات الدورة السابعة والخمسين لمجمع القاهرة "بألا تكون كتبنا من جزئين – جزء عربي وجزء أجنبي"، وجاء مثل ذلك في ورقة

للدكتور محمد هيثم الخياط "بضرورة وضع قائمة تشتمل على الرموز والمختصرات بالعربية وهو باب – على حد قوله تمسُّ الحاجة إليه.

ويقول الدكتور محمد عبدالرحمن مرحباً في كتابه "الجامع في تاريخ العلوم عند العرب" إن عدم تطور الرموز عند العرب كان نقصاً خطيراً وكان سبباً مباشراً في عدم تسارع الحركة العلمية عند العرب والمسلمين.

ولقد سبق لي أن أشرت إلى تعريب الرموز في ورقة منشورة في مجلة اللسان العربي من قبل نحو عشرين عاماً في محاولة مني لمعاجلة بعض هذه الرموز في اللغة العربية.

ولعل أوسع دراسة حديثة في هذا الشأن هي كتاب "الرموز العلمية وطريقة أدائها في اللغة العربية" الذي أعد له مجمع اللغة العربية الأردني ثم أجازه اتحاد مجامع العربية في عام 1987م.

ولقد أولت الهيئة العليا للتعريب بالسودان أمر الرموز عناية كبيرة ودراسة واسعة مستصحبة في ذلك ما جاء من مقترحات في كتاب الرموز الأردني.

ندعو إلى ضرورة الالتفات إلى أمر الرموز العلمية والصيغ الرياضية وكيفية أدائها في اللغة العربية وإلى عقد جولة أخرى من التداول حولها.

وبما أن الرموز الأساسية محدودة العدد ويمكن جمعها مع شروحها في كتاب واحد من الحجم المتوسط فمن المأمول الوصول إلى درجة عالية من الوفاق حولها.

ب- المختصرات

هي ضرب من الاختصار للعبارة الطويلة أو للعناوين المتكونة من كلمات متعددة وهي لا تدخل عادة في الصيغ الرياضية.

ولقد يجد المتأمل في صياغات بعض المختصرات الحديثة شيئاً من مظاهر العجمة وذلك منذ أن جعل الناس ينحتون هذه المختصرات من جمع الحروف الأولى من كلمات العبارة أو العنوان المرجو اختصاره.

فإذا ما قرأت بعدئذ الكلمات المولدة بهذه الطريقة لأسماء الشركات أو المؤسسات أو الهيئات لقلت إنها لا تمت إلى كلام العرب في شيء.

فالنحت غير طيِّع إلاّ للذواقة من العرب المفطورين، ومن المنحوت المستساغ قولك: بسملة وحوقلة وعبشمي ذلك في القديم وحديثاً في قولك لوحدة الزاوية نصف القطرة نقيّة.

أمّا ماسبيو واكتومايو وسونا ومثيلاتها من المسميات التي ظهرت في عهد سابق بالسودان فهي في تقديرنا من النحت المستقل غير المستساغ، ومن أبشع النحت ما أصابنا من إلحاق المقطع كو بالمختصرات، كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد توفيق الرخاوي، فأصبح لدينا كما يقول من أسماء الشركات عصامكو وصادقكو، ولك أن تضيف إلى ذلك أرامكو، وآيسسكو وأليكسو وإن شئت يونسكو ومثيلاتها.

يضاف إلى ذلك الجمع بين الحروف المتنافرة في الكلمة المولدة كتتابع الدال والزاي والجمع بين الصاد والجيم، والقاف والجيم في الكلمة المولدة.

ولقد استثقل بعض العلميين الاختصارات من أنواع التركيب المزجي مثل كهرومغناطيسية وفضلوا عليها كهربية مغناطيسية.

واستساغوا نحو برمائي ولا مائي ولاسلكي واللامركزية ومثيلاتها وذلك لخفتها.

موضوع المختصرات يحتاج إلى عناية خاصة من مجامع اللغة العربية لإصلاح شأنها.

ج- هناك دراسات متممة أو مكملة للتعريب نذكر منها

1- نظم نقل أسماء الأعلام من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية وبالعكس حيث يرجى الالتفاف حول نظام يُلتزم به في جميع البلاد العربية، وذلك لتيسير التدوين والاسترجاع في المصادر العلمية العربية.

وقد أصدرت الهيئة العليا للتعريب ورقة في هذا المبحث في مؤتمر التعريب السابع الذي عقد بالخرطوم في يناير/ فبراير 1994م.

2- توحيد نظام المقاييس والمكاييل والموازين لتيسير تبادل الكتب الجامعية بين بلد وآخر.

3- العمل على توحيد المواصفات بين البلاد العربية لتشجيع أنواع التعامل والتبادل الصناعي والسلعي فيما بينها.

4- تشجيع الجمعيات العلمية والمؤسسات المهنية لعقد الندوات والمؤتمرات للمتخصصين في البلاد العربية لنشر المعرفة العلمية بينهم بما يفضي إلى توحيد المصطلحات وبثها وإشاعتها على أوسع نطاق بين أهل هذه التخصصات.

5- العمل على تشجيع النشر العلمي، بكتابة البحوث وإصدار المجلات العلمية باللغة العربية وبترجمة الكتب العلمية النافعة والكتب الأمهات والتنسيق في ذلك بين مجامع اللغة ومراكز التعريب وهيئاته.

إن تحقيق مشروع التعريب هو المدخل لجعل اللغة العربية لغة عالمية للتدريس والبحث العلمي وهو الطريق إلى تحرير الفكر وإذكاء روح الإبداع وتوطين العلوم الكونية الحديثة في لغة الأمة، فاللغة العربية هي آصرة العروبة وعروتها وخزانة الموروث الحضاري ووعاء أصول الدين ومنبع ثقافتنا وحضارتنا المشتركة.

نسأل الله التوفيق إلى تمام هذا الأمر على وجه يرضيه وتعزُّ به الأمة ويعلو به شأنها في العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

ثبت المراجع

1- تاريخ السودان — نعوم شقير- تحقيق: د. محمد إبراهيم أبو سليم دار الم
بيروت، 1981م .

2- السودان عبر القرون — مكي شبيكة- دار الجيل- بيروت، .1991

3- History of The Arabs in the Sudan Vol. 1. — Harold A. Mac Miceal
مطبعة جامعة كمبردج- إنجلترا، 1992م.

4- عروبة البربر — محمد علي مادون ا-لمركز العربي للترجمة والتأليف و
دمشق 1992م.

5- مروج الذهب (الجزء الأول) — أبو الحسن المسعودي -دار الأندلس- بيروت، 1984

6- مقدمة ابن خلدون — دار الأندلس – بيروت، 1984م.
عبدالرحمن محمد بن خلدون- دار الفكر للطباعة والنش
بيروت، 1981م.

7-نحو التعريب- في مجال العلوم والتكنولوجيا — دفع الله عبدالله الترابي- مجلة اللسان العربي- المجلد
عشر ج1.
مكتب تنسيق التعريب- الرباط، 1976م.

8- الصعوبات المفتعلة على درب التعريب — ميل الملائكة- محاضرة منشورة.

9- الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، ط2 — محمد عبدالرحمن مرحبا- منشورات عويدات- بيروت،
1982م.

10- الرموز العلمية وطريقة أدائها باللغة العربية — اتحاد مجامع اللغة العربية، 1987م، جامعة الدول الع

11- تعليم العلوم الصحية والطبية باللغة العربية — منظمة الصحة العالمية- المكتب الإقليمي للشرق الأو
الإسكندرية،1991م.

12- توصيات مجمع اللغة العربية بالقاهرة — الدورة الثالثة والستين- القاهرة، 1997م.

13- الرموز العلمية في اللغة العربية وأثرها في التعريب — دفع الله عبدالله الترابي- مجلة مجمع اللغة العربية بدم
1996م.

14- المعجم الطبي الموحد (ط3) منظمة الصحة العالمية- المكتب الإقليمي للشرق الأو
الإسكندرية- سويسرا، 1983م.

15- مجلة التعريب العدد الخامس المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، دمش
1993م.

16- عناصر التعريب وقضيتنا الحضارية محمد توفيق الرخاوي- مقال منشور بجريدة مصرية، 5

17- المصطلحات الطبية الموحدة محمد هيثم الخياط- محاضرة في الموسم الثقافي لمجم
العربية الأردني، 1989م.

18- توصيات مجمع اللغة العربية بالقاهرة الدورة السابعة والخمسون- القاهرة، 1992م.

19- تقويم مسيرة التعريب في السودان (1991-1996م) الهيئة العليا للتعريب- الخرطوم، 1997.

المحاضرة السادسة

اللغة العربية والتعريب العلمي في مصر
في الحاضر ونظرة إلى المستقبل، قضايا وحلول

الأستاذ الدكتور عبدالحافظ حلمي محمد

رئيس الجمعية المصرية لتعريب العلوم

أستاذ علم الحيوان- جامعة عين شمس

السبت 2 صفر 1418هـ 7 حزيران 1997م

يسعدني أن أتقدم بجزيل شكري لمجمع اللغة العربية الأردني الموقر، ولرئيسه الجليل الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة، دعوتهم إياي لأن أشرف بالإسهام في الموسم الثقافي الخامس عشر للمجمع، والحق إنني عندما تلقيت هذه الدعوة الكريمة تنازعت نفسي عدة نوازع أهمها تهيّب الحديث في موضوع طال الكلام فيه وكثر، حتى كاد يعصب الإتيان فيه بجديد، ومن ثم خشية أن يتضمن حديثي قليلاً أو كثيراً من كلام معاد، أعتذر إليكم مقدماً عما قد أتورد في شيء منه، ولكني عاودت تفكيري، فحدثتني نفسي بأن هذا سوف يكون أول لقاء لي بهذه الصفوة من علماء الأردن الإجلاء الحريصين على قضية التعريب، فهي إذن فرصة لتبادل الرؤى والخبرات، وإنها هي الذكرى التي تنفع المؤمنين، إن شاء الله، ثم إن اللقاء نفسه غاية تُرتجي، وأُصارحكم بأن شوقي لهذه اللقاء، وزيارة عمَّان لأول مرة، كان إغراؤهما شديداً، وقبل هذا كله ما وفر في نفسي أن دعوة الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة، بأدبه الجم ومنزلته الرفيعة وشخصيته الآسرة، دعوةً لا يمكن أن تُرد.

وأرجو أن تتسع أوقاتكم وصدوركم لأن أتناول، في حديثي إليكم الليلة، عشر نقاط:

١ -العربية والتعريب.

٢ -العربية والإسلام والعلم.

٣ -إلمامه بتاريخ التعريب في مصر.

٤ -حاضر التعريب في مصر.

٥ -التعريب ضرورة ملزمة.

٦ -اعتراضات مفندة، وعقبات بعضها متوهم أو مفتعل.

٧ -مسوِّغات التعريب.

٨ -خطة التعريب.

٩ -ثمار جنيَّة، ومنافع مؤكدة.

١٠ -اللغات الأجنبية وتعريب العلوم.

1- العربية والتعريب

1-1 العربية والتعريب هما همنا وغايتنا المرتجاة، لأننا نعلم أنهما في مقدمة هموم أمتنا وغاياتها، وأساس لنهضتها ووحدتها وتميّز هُويتها، ويستعمل الناس لفظ "التعريب" في مفاهيم شتى، وإن التقت في أصلها، وأقرب هذه المفاهيم إلى موضوعنا ثلاثة مدلولات:

الترجمةُ، وتعريب المصطلحات الأجنبية، وتعريب لغة العلم أما عن الترجمة، فالتعريب ترجمة إلى اللغة العربية بذاتها، أو يقصد به أحياناً أسلوبٌ من الترجمة يتحرر قليلاً أو كثيراً من الأصل المنقول عنه، حتى لقد يُدَّعى أحياناً أنه تأليف، وأما تعريب المصطلحات الأجنبية فهو رافد من روافد سك المصطلحات العربية للعلوم، فهو هنا اصطلاح لغوي فني، وتجنباً للخلط رأي بعض الباحثين الابتعاد عنه، فمن هذا المنبر، فضل الدكتور محمد السويسي (1993)، استعمال مصطلح "الاقتراض اللغوي" وكذلك فعل الدكتور محمود فهمي حجازي (1993)، في كتابه عن" الأسس اللغوية لعلم المصطلح"، إذ استعمل مصطلح "الاقتراض المعجمي" (ص: 226)، ولو أنني أظن أن لفظ "التبنَّي" أصدق من "الاقتراض"، لأن –باتخاذ اللفظ الأجنبي على حاله أو قريباً من ذاك، أو بإكسابه قالباً عربياً، وهنا سوف يكون الأول استعمالُ لفظ "التعريب" فكما يقول الجوهري: "تعريب الاسم الأعجمي إن تفوه به العرب على مناهجها" (محمد السويسي، 1993).

1-2 وأما تعريب لغة العلوم، فهو مفهوم حديث "بات يدلّ على جعل العربية لغة التعليم في جميع مستوياته، ولغة البحث العلمي والتقنيات الحديثة في وطننا العربي". وأنا هنا أقتبس كلام الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة من مقدمة كتابه القيم عن "اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث" (1987)، وهذا هو المدلول الذي سوف يكون جلُّ كلامي الليلة عنه، أما قول الطامحين بأن المدلول ينبغي أن يمتد ليشمل "تعريب الفكر" و"تعريب العلم" (كما ينادي به الدكتور كمال بشر، 1994، مثلاً)، فلي عليه تحفظ، وذلك أن "تعريب الفكر" هو ثمرةُ ونتيجة لتعريب لغة التعليم، كما أن "تعريب العلم" قضية علمية، اقتصادية واجتماعية وحضارية وتاريخية، تحكمها مقوماتٌ من

اختصاص الجامعات وأكاديميات العلوم والهيئات المسؤولة عن البحث العلمي والتخطيط في عالمنا العربي.

وهذا المعنى الثالث الحديث لا نجده في معجمنا المعاصر، "الوسيط"، الذي يكتفي بالمعنى الاصطلاحي، ذاكراً أن التعريب"، صبغٌ الكلمة بصبغة عربية عند نقلها بلفظها الأجنبي إلى اللغة العربية"، ويورد القاموس مدلولات للفظ التعريب بعيدةً عن دائرتنا، ولكنه يقول أيضاً إن التعريب "تهذيب المنطق من اللحن..." ويتردد المفكرون المعاصرون بين المدلول الفني الاصطلاحي والمدلول الحديث العام، فمن ذلك أن مجمع القاهرة جعل "التعريب" شعاراً لمؤتمره السنوي لهذا العام، فتفاوت فهم هذا الشعار، مثلاً، بين الدكتور إبراهيم عبدالله رفيدة (1997)، الذي قدم بحثاً إضافياً عن "معنى التعريب وضوابطه في تراثنا اللغوي القديم"، وبين الدكتور عبدالكريم خليفة (1997)، الذي أفادنا وأمتعنا بالحديث عن جهود مجمع الأردن في تعريب لغة العلوم.

2- العربية والإسلام والعلم

2-1 والعربية التي نحاول أن نشدَّ الحديث إليها، ويجادلنا في ذلك المجادلون، وثيقة الصلة بالعلم، حتى بمدلوله الاصطلاحي الحديث، ولا يستطيع مشّكك أن يزعم صادقاً أنها تعجز عن الوفاء بمتطلباته، ويكفي اللغة العربية في هذا الصدد شهادةُ التاريخ، وأحدثَ من تقدم للإدلاء بهذه الشهادة ستفين جوكروجر (Stephen Gukroger, 1996)، الأستاذ بكلية الفلسفة بجامعة سيدني، حين كان يعرض في آخر عدد من مجلة Metascince، موسوعةً عن العلم العربي صدرت في لندن عام 1996، فقد صدَّ الأستاذ عرضه بما ترجمته:

"كانت اللغة العربية لغة العلم من القرن التاسع حتى نهاية القرن الحادي عشر، بمعنى أنها كانت اللغة العالمية لعلماء المسلمين من سمرقند إلى غرناطة، أيَّاً كانت لغاتهم الأصلية؛ وبمعنى أن الحضارة العربية كانت مستودع العلم الكلاسيكي والمبتكرات العلمية المعاصرة في ذلك الزمان".

ولي تحفظ على مدى الزمن الذي حدده الأستاذ، فكثير من مؤرخي العلم يبدأونه من القرن الثامن الميلادي، ويمدونه حتى نهاية القرن الخامس عَشَر.

2–2 والعربية قد استمَّدت عنفوانها وسيادتها في ذلك الوقت من عنفوان الدولة الإسلامية وسيادتها، ما في ذلك شك، ولكنَّ الحقَّ أيضاً أنها قامت بهذا الدور بكفاءة ذاتية فيها للقيام بهذا الدور، وهذا أمر ينبغي علينا أن نستحضره دائماً، وأن ننبه إليه الأذهان، ويكفيني هنا أن اقتبس ما سجله الأستاذ رسَلْ، من معهد ولكوم لتاريخ الطب بلندن، في معجم حديث لتاريخ العلوم باللغة الإنجليزية، فبعد أن استعرض الأستاذ المعالم الأساسية للعلم الإسلامي، قال ما ترجمته:

"... وكانت العربية أداةَ هذا النشاط العلمي كله، فلما كانت العربية لغة القرآن، أصبح لها أهمية خاصة في الإسلام، بيد أن طبيعة اللغة العربية نفسها هي التي قامت بالدور الحاسم، فمرونتها الرائعة قد مكنت المترجمين من سك مفردات محدودّة دقيقة للمصطلحات العلمية والتكنولوجية أو ابتكارها، وهكذا اتخذت لغة الشعر اللغة العالمية للعلم والحضارة" (G.A. Russel, 1981:215).

وأنتم يا علماء اللغة العربية أعلم بما فيها من غناء، وما هو كامن في صميم طبيعتها من أسباب التطور والنماء.

2–3 بل إن هناك وجهاً آخر للعلاقة بين اللغة العربية والعلم، وهو أن العلم الحديث في الحضارة الغربية المعاصرة يستمد أصوله من الإسلام واللغة العربية معاً، وأنه صنيعتهما (عبدالحافظ حلمي محمد، 1997)، وذلك أن المنزلة الرفيعة التي بوأها الإسلام للعمل والعلماء، وسماحته، ومساواته بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وأعرافهم، قد جعلت العقلية الإسلامية متفتحة، متعطشة للعلم، تسعى لكل علم نافع، ولو في الصين، وتتقبله دون عائق من جنس أو لون أو دين، وهكذا لما انتشر الإسلام، واختلط العرب بغيرهم من الأمم، هبوا ليقوموا بأكبر عملية في التاريخ لنقل التراث العلمي للإنسانية جمعاء وحفظه، وهكذا أصبحت جداول العلم التي كادت تنضُب ينابيعها في مصر القديمة وبلاد اليونان والإسكندرية وفارس جند يسابور والهند والصين، أصبحت تصب في بحر صاف جديد، وهكذا انصهرت الحضارات السابقة في بُوتَقَة الحضارة الإسلامية السمّحة الفتية، التي أعادت صوغ العلم لتجعله عالمياً موحَّداً، ذا أهداف نبيلة وقيم رفيعة جديدة.

وأصبح لهذا العلم الموحَّد لغةٌ، هي لغة القرآن الكريم التي يعتز بها كل مسلم، بل إنها قد أصبحت – طواعية واختياراً– لغة الحياة في معظم أرجاء العالم الإسلامي، وسرعان ما أصبحت لغة العلم العالمي، كما قدَّمنا، وتوحيد لغة للعلم والحياة أزال الحواجز بين العلماء ولغة الشعب، فجعل مفاهيم العلم ونتائجه ومبتكراته متاحة لجماهير الناس، للتعليم وللثقافة وللتطبيق، ومن أدل الأمثلة على ذلك رسائل إخوان الصفا، التي قدمت باللغة العربية موسوعة علمية راقية لمتثقفي القرن الرابع الهجري (عبدالحافظ حلمي محمد، 1992)، وهذه نقلة حضارية بعيدة المدى، ولم يسبق لها في التاريخ مثيل، فلنتأمل ولنوازن بين هذا الموقف وقيام العلم في أوروبا في عصر النهضة، فقد كان تداوله والاشتغال به هناك– إلى عهد غير بعيد– مقصوراً على الذين يتقنون اللاَّتينية الميتة البعيدة عن الحياة والناس، هذا بعض ما يدفعنا دفعاً إلى تعريب لغة العلوم في بلادنا في الوقت الحاضر.

3- إلمامة بتاريخ التعريب في مصر

3–1 اللغة العربية هي لغة التعلّم في مراحل التعليم العام كلها في مصر، وهذا يتضمن التعليم الثانوي الفني والمهني، ويستثنى من هذا ما يسمى "المدارس التجريبية" الحكومية، بمراحلها الثلاث، وما يسمى "مدارس اللغات" الخاصة، إذ تدرَّس المواد العلمية فيها بلغة أجنبية، وإن كانت تهتم بتدريس اللغة العربية نفسها، وفقاً لمناهج وزارة التربية والتعليم، وهذا يقلل من اهتمام التلميذ باللغة العربية، كما أنه قد يوهمه بقصور اللغة العربية عن أداء هذه المواد (سام عمار وشحادة الخوري، 1996)، لكن هذه قضية خاصة، أعدُّها جانبية، إذ إنني حريص على أن أحدّد ميدان معركتنا الحالية في تعريب لغة تدريس العلوم في المرحلة الجامعية الأولى.

3–2 والتعليم في معظم المعاهد العليا غير الجامعية باللغة العربية أيضاً، وكذلك التعليم في معظم الكليات الجامعية يؤدَّى أيضاً باللغة العربية، وينص قانون تنظيم الجامعات المصرية (الصادر عام 1972، في مادته رقم 168، في القوانين السابقة عليه)، على أن اللغة العربية هي لغة التعليم فيها" وذلك ما لم يقرر مجلس الجامعة في أحوال استعمال لغة أخرى"، ولكن يبدو أن هذا الاستثناء المقيَّد لم يزل

هو القاعدة في بعض الكليات، وخصوصاً كليات العلوم، والأقسام العلمية في كليات التربية والبنات والطب والطب البيطري والصيدلة والهندسة.

3-3 والعجيب أن بداية التعليم الحديث في مصر كانت طيبة ومبشرة للغاية، فقد رأى محمد علي باشا أن يعدَّ رواداً من المصريين القادرين على إدارة الدولة الحديثة التي يطمح إلى إقامتها في مصر، فأنشأ عام 1827 مدرسة للطب تلحق بالمستشفي العسكري في أبو زعبل، كانت تدرَّس فيها أيضاً العلوم الأساسية، من فيزيقا وكيمياء وعلم النبات والتشريح ووظائف الأعضاء، ثم أُلحق بمدرسة الطب عام 1832، مدرسةٌ للصيدلة تضم حديقة للنباتات الطبية، وفي عام 1837، انتقلت مدرستا الطب إلى قصر العيني، وألحقت في العام التالي مدرسة للقابلات والولادة (إبراهيم جميل بدران وآخرون، 1995)، كذلك أنشأ محمد علي مدرسة للطب البيطري بجوار مدرسة الطب، وأخرى للهندسة بالخانقاه، وثالثة للموسيقى، ورابعة للفنون والصنائع – أي التكنولوجيا- وخامسة للزراعة (عمر الإسكندري، وسليم حسن، 1917: 156-157).

4-3 واستعان رئيس مدرسة الطب، أنطوان كلوت بك الفرنسي، بعدد من الأطباء الفرنسيين والإيطاليين والأسبان والألمان، ولكن مشكلة لغة التدريس خُلَّت بأسلوب عملي وفعَّال، فقد الحق كلوت بك، ذلك الرجل المخلص الأريب، بمدرسة الطب مدرسة الألسن، ليتعلم فيها الطلاب أصول اللغات الأجنبية، وكانت الدروس العلمية تُلقى باللغة الفرنسية، ثم تترجم إلى العربية، ثم تُملى بعد ذلك على الطلاب وفي الوقت نفسه، بل قبل إقامة المدارس العلمية، بدأت حركة نشطة لترجمة الكتب، بأمر من الجناب العالي عام 1823، من الإيطالية أولاً ثم من الفرنسية فيما بعد، وكانت تذللك كلّ العقبات، حتى إن المترجم السوري يوحنا عنحوري لم يكن يعرف إلا الإيطالية، فكانت تترجم له الكتب من الفرنسية إلى الإيطالية، ثم يقوم هو بترجمتها إلى العربية، وفي جميع الأحوال كان عد من علماء الأزهر الشريف يقوم بالمراجعة اللغوية للمتون العربية، ويبدو أنهم كانوا أصحاب العناوين المسجوعة، مثل: "منتهى الأغراض، في علم شفاء الأمراض"، الذي طبع في بولاق عام 1834. (عايدة نصير، 1994).

3-5 وحاول محمد علي دفع الأساتذة الفرنسيين إلى تعلم اللغة العربية، ولكنهم لم يرحبوا بذلك، فعين لكل أستاذ مترجماً، ثم إنه عمد إلى خطة مزدوجة بارعة، فطلب من المترجمين الالتحاق بمدرسة الطب ليلموا بالعلوم الطبية ويفهموا مصطلحاتها (وهي طريقة مُثلى لإعداد المترجم المتخصص)، كما أنه شجع طلاب الطب على دراسة اللغة الفرنسية بمدرسة الألسن، التي عمل فيها الشيخ رفاعة الطهطاوي نفسُه مدرساً للترجمة بعد عودته من فرنسا (أحمد عزت عبدالكريم 1928: 259)، ثم كانت هناك حركة الابتعاث، إلى إيطاليا أولاً (1809) ثم إلى فرنسا (1826)، ففرض على طلاب البعثات العائدين – بشيء من العنف والقسر أحياناً – ترجمة جميع الكتب التي درسوها، حتى إنهم كانوا يكلفون بالترجمة فور عودتهم وهم محتجزون في الحجر الصحي، ثم كانت تغلق عليهم أبواب القلعة لا يبرحونها حتى ينتهوا مما كلفوا بترجمته، فإذا فرغوا دفع بالترجمات إلى المطبعة الأميرية (جاك تاجر، 28: 1945)، وفي عام 1841، أُلحق بمدرسة الألسن، بناء على توصية من لجنة تنظيم التعليم، إدارةً خاصة للترجمة تجمع خريجي المدرسة وتراقب إنتاجهم على أيدي أساتذة متخصصين، وكانت هذه الإدارة تضم "أقلاماً"، منها قلم للعلوم الرياضية، وآخر للعلوم الطبية والطبيعية (عيادة نصير، 1994: 254).

وبلغ عدد المترجمات في النص الأول من القرن التاسع عشر 261 كتاباً، منها 56 في العلوم البحتة، و 91 في العلوم التطبيقية (عايدة نصير، 1994: 281)، ولذلك كان جمال الدين الشيال محقاً في قوله بأن محمداً علياً "كان رجلاً حصيف الرأي بعيد النظر فاحتفظ لمصر بقوميتها ولغتها، ونقل إليها علوم الغرب على الرغم مما كلفته هذه الغاية الحميدة من مشقات وتكاليف" (جمال الدين الشيال، 1951: 33)، وكان اليابانيون يبعثون إلى مصر من يتعرف الوسائل التي اتبعتها في نهضتها الحديثة الرائدة، ثم كان ما كان ويرى الدكتور محمد هيثم الخياط أن مصر كانت مؤهلة لبلوغ ما حققته اليابان من تقدم مذهل فيما بعد، "لولا أن وأد الاستعمار ذلك الأمل بتحويل لغة التعليم إلى لغة أجنبية فقضى بذلك... على قوة الإبداع والاختراع...".

3-6 ثم كانت نكسة في عهد عباس الأول (1849-1854)، أعقبتها صحوة في عهدي سعيد (1845-1863) وإسماعيل (1863-1879)، ولا أريد أن أثقل

عليكم بالتفاصيل، ثم كان ما كان من اضطراب في أوائل حكم توفيق، انتهى ببدء الاحتلال البريطاني لمصر عام 1882، وفي عام 1887، فرض الإنجليز تعليم الطب باللغة الإنجليزية، في مدرسة الطب التي كان عيسى حمدي باشا قد أحياها وأصبح ناظراً لها عام 1883، وعمل بها عدد من الأساتذة المصريين، بل إن الإنجليز فرضوا لغتهم الدخيلة على مدارس التعليم العام عام 1889، إلى أن ألغى هذا الفرض قرار الجمعية التشريعية المصرية عام 1907 (السيد أحمد فرج، 1993)، ولكن يلاحظ أن تسلط المستعمر لم يفلح في فرض اللغة الإنجليزية على حياة الناس، فظلت الفرنسية اللغة الأجنبية المفضلة لدى المثقفين، كما أن مفردات الحياة اليومية في عامية الشعب لم تتأثر بصورة طبيعية إلا بمن كانوا يخالطون الشعب من الفرنسيين والإيطاليين واليونان وفي حدود.

3-7 وكانت أولى المحاولات الوطنية لمقاومة تغريب لغة العلم في مصر إنشاء مجمع لغوي في دار آل البكري بالقاهرة عام 1892، ولكنه لم يمض في عمله سوى بضعة شهور، وعادت المحاولة في "نادي دار العلوم "، وبخاصة في ندوته التي عقدها عام 1908،ودعي فيها إلى النشاط في وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية، تهيئة لاعتمادها من مجمع لغوي سوف يؤلف لهذا الغرض، وبناءً على دعوة من الأستاذ أحمد لطفي السيد، أُنشي عام 1916، مجمع أهلي بدار الكتب المصرية التي كان مديراً لها، ولكن "مجمع دار الكتب" هذا توقف حين قامت ثورة 1919، ثم صدر أخيراً مرسوم لمكي بإنشاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1932، وبدأ أولى جلساته في يناير (كانون الثاني)، عام 1934 (شوقي ضيف، 1984)، ودور مجمع القاهرة في رعاية قضية التعريب ووضع المعجمات العربية العلمية وإصدارها معروف.

3-8 وعوداً إلى الجامعة: أقام رواد النهضة المصرية الحديثة جامعة أهلية للدراسات الأدبية عام 1908، بعد عام من رحيل اللورد كرومر، وبعد الاستقلال المرحلي لمصر عام 1922، صدر المرسوم الملكي بإنشاء الجامعة المصرية عام 1952، وكانت تضم في أول عهدها كليات للآداب، العلوم، والطب وفرع ملحق بها للصيدلة، والحقوق، ثم ضُمّ إليها عام 1953 عدد من المدارس العليا: مدرسة الهندسة الملكية، ومدرسة الزراعة العليا، ومدرسة الطب البيطري، ثم اضطرد نموها وإنشاء جامعات أخرى، كما هو معلوم.

3-9 والأمر العجيب الذي لم يفسره لي أحد تفسيراً مقنعاً أن كلية الزراعة الأم التي ضُمت إلى الجامعة عام 1935، المدارس الزراعية المتتابعة التي سبقتها، هي الوحيدة – على قدر علمي- بين الدراسات العلمية في مصر، التي نجت من التغريب منذ بدايتها، فكان التدريس فيها دائماً باللغة العربية، على الرغم من أنه تعاقب على المدارس الزراعية عدد من النظار الأجانب، معظمهم إنجليز، حتى عام 1923 (أحمد مستجير، 1989)ن ومعذرة لاضطراري إلى الإثقال عليكم بهذه الإلمامة التاريخية، فهي جذور الحاضر الذي نعيشه الآن، بل إن فيها المغزى والعبرة والأمل.

4- حاضر التعريب في مصر

4-1 قد أجريت استطلاعاً، بالاتصال الشخصي المباشر بالزملاء، لمعرفة حال التعريب في الكليات الجامعية غير المعربة في مصر، وكان بعض الردود غير شامل وغير موح بإمكان الاعتماد عليه، كما أنه قد اتضح لي أن الصورة العامة تتكرر في الكليات المتناظرة، وإن اختلفت في بعض التفاصيل، ولا غرابة في ذلك، فالظروف متشابهة، والزملاء متواصلون، فضلاً على شيوع الاعتماد على الأساتذة المنتدبين من الكليات القديمة إلى الكليات المستحدثة في الجامعات الإقليمية التي لم تستكمل بعد بناء هيئات التدريس فيها، وأكتفي بأن أعرض على حضراتكم أهم ما توصلت إليه من هذا الاستطلاع.

4-2 عن كلية العلوم بجامعة عين شمس، التي انتقلت إليها من جامعة القاهرة عام 1960، جاء في التقرير الرسمي الذي أعده لي وكيل الكلية لشؤون التعليم والطلاب (الدكتور صلاح الدين عبده حسن، 1997)، أن التدريس لم يعرب البتة في ستة أقسام من عشرة، أما الذي يدرس بالعربية فهو: معظم مقررات الرياضيات في الفرقة الأولى، ثلاثة مقررات في الفرقة الأولى، ومقرران في الفرقة الثانية، وجزء من مقرر واحد في الفرقة الرابعة في قسم علم النبات بعض المقررات في الفرق المختلفة في قسم الجيولوجيا مقرران في الفرقة الثانية في قسم الجيوفيزيقيا، وأفاد قسم علم الحشرات أن أحد المقررات قُدم بالعربية خمس سنوات ثم عدل المحاضرون الحاليون عن ذلك، كما إنني أعرف أن عضواً ناشطاً في الجميعة المصرية لتعريب العلوم يقدم

عدداً من مقررات الفيزياء باللغة العربية، ولكن البيان الرسمي للقسم لم "يعترف" بذلك!.

والحال في كلية العلوم بجامعة القاهرة أسوأ من ذلك، بل إنني أُخبرت أن بعض المقررات كان يدرَّس فيها بالعربية ثم عدل عن ذلك (الدكتور عطية عبدالسلام عاشور، 1997)، والعجيب أن الحال في كلية العلوم للذكور وكلية العلوم للإناث في جامعة الأزهر لا تختلف عن هذه الصورة العامة، وكذل هي الحال في الأقسام العلمية بكليات البنات بجامعة عين شمس، وكليات العلوم لها وضع خاص، إذ إنها تقوم بتدريس طلاب السنوات الإعدادية لكليات الطب وطب الأسنان والطب البيطري الصيدلة في جامعاتها، وهي تُقَدَّم كلُّها باللغة الإنجليزية.

4-3 وكليات التربية التي يتجاوز عددها العشرين في مصر، لها وضع خاص فهي التي تُعدّ مدرس العلوم في التعليم العام، ومع أنه كان ينبغي بداهةً أن يكون تدريس المواد العلمية فيها باللغة العربية التي هي لغة تدريس العلوم في مدارس التعليم العام، نجد الواقع غير متفق مع هذا المنطق الطبيعي، في كلية التربية الأم بجامعة عين شمس، لم تعرب المواد العلمية في شعبة التعليم العام إلاَّ في الفرقتين الأولى والثانية، وفي بعض مقررات العلوم البيولوجية تدَّرس باللغة الإنجليزية في الفرقتين الثالثة والرابعة، ويضيف التقرير الذي قُدم إلي أن للمحاضر أن يقدم أي جزء من المقررات المعربة باللغة الإنجليزية، وأنه يفرض على الأساتذة المعرّبين تقديم المقابلات الأجنبية للمصطلحات العربية التي يستعملونها، وهذا الوضع في كليات التربية غير مستغرب، لارتباط أقسامها العلمية ارتباطاً وثيقاً بالأقسام المناظرة لها في كليات العلوم، بل إن كليات العلوم في بعض الجامعات هي التي تقدم المواد العلمية لطلاب كلية التربية بها، ولكن من حسن الحظ، إن معظم التعليم معرب في شعبة التعليم الأساسي التي تُعِدّ معلمي المدارس الابتدائي ة (الدكتور محمد عبد الحميد شاهين، 1997).

4-4 أما كليات الطب والصيدلة في مصر فإنها اعتى معاقل اللغة الإنجليزية، ويسوق إخواننا الأطباء شتى المعاذير عن ذلك، وقليلة جداً هي المقررات التي تقدم في كليات الطب باللغة العربية، كمقرر في تاريخ الطب في جامعة ا لقاهرة، ومادتي

الطب الشرعي والأمراض العصبية والنفسية في كلية الطب للذكور في جامعة الأزهر، ويوم عقدت الجمعية المصرية لتعريب العلوم، وهي في طور التكوين، ندوة عن "مقومات التدريس الجامعي باللغة العربية" في أبريل (نيسان) عام 1994، كان الأستاذ الدكتور حمدي السيد نقيب الأطباء، أشد المعارضين.

والمجلد الكبير الذي أعد عن التأريخ للعلوم الطبية في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين (إبراهيم جميل بدران وآخرون، 1995)، لم يتعرض إطلاقاً لموضوع لغة التدريس بكليات الطب، وتعريب تدريس الطب – بوجه عام– له مؤيدوه ومعارضوه (انظر: مثلاً، على محمد أسعد، 1996– آراء مختلفة، وانظر أيضاً:"نتائج وتوصيات مؤتمر تعريب التعليم الطبي"، الكويت، 1996، في: مجلة الخفجي عدد يوليو (تموز)، 1996: 20–32).

4–5 وأما في كليات الهندسة فيفيد الأستاذ الدكتور المهندس عبدالرازق عبد الفتاح (1997)، وهو رئيس سابق لجامعة حلوان وعضو بمجمع اللغة العربية، أن معظم تدريس الهندسة لم يعرب، باستثناء شعبة العمارة، وإن كان معظم المحاضرات يقدم بالخليط المألوف من الإنجليزية والعربية، ولكن الامتحانات توضع باللغة الإنجليزية مع السماح للطلاب أحياناً بالإجابة باللغة العربية، وعن كلية الهندسة بجامعة الأزهر، يفيد الأستاذ الدكتور محمد الحملاوي (1997)، أمين عام الجمعية المصرية لتعريب العلوم، أن أقسام الكهرباء والميكانيكا والتعدين لم تعَّرب على الإطلاق، وأن مقررات السنة الإعدادية لم يعرب منها إلاّ مقرر واحد، وأن قسم الهندسة المدنية عرب مقرراً واحداً، وأن قسم هندسة النظم والحاسبات عرب ثلاثة مقررات، أما قسما العمارة والتخطيط فقد عربا نحو سبعين في المئة من مقررات السنوات الأربع، وقد أنبأنا الدكتور الحملاوي مؤخراً أن مجلس كليتهم وافق على تشكيل لجنة للتعريب فيها استجابة لإحدى توصيات المؤتمر السنوي الأخير للجمعية المصرية لتعريب العلوم.

4–6 وهذا العرض كاف– على عدم شموله– لبيان صورة الوضع الحالي لتعريب لغة تدريس العلوم في الجامعات المصرية، وهذا التعريب الجزئي هنا وهناك له وجه إيجابي، فهو يدل على وجود الرغبة والمحاولة، ويومئ بالإحساس بأن

التدريس باللغة الإنجليزية لم يعُد مجدياً أو أن أداءه بصورة مرضية لم يعُدْ مستطاعاً. بيد أن له أيضاً وجهاً سلبياً، فهو يكشف عن الافتقار إلى الخطة والتنسيق والاضطراد، ويُحدث اضطراباً في متابعة الطلاب لدراساتهم للمقررات المتدرجة أو المترابطة، واللجوء إلى التعريب في الفرقتين الأولى والثانية، باعتبار أنهما المرحلة الأولى من التعليم الجامعي وتسبقان التخصص النهائي في بعض الكليات، أعتقد انه هروبي أو تسويفي، وتعريض الطالب إلى صدمة التعليم باللغة الإنجليزية في الفرقة الثالثة حين ينبغي له أن يتعمق ويتخصص، أضرّ كثيراً من تعريضه لها وهو في الفرقة الأولى.

5- التعريب ضرورة ملزِمة

5-1 أود أن أقتبس فقرة ذات دلالة ومغزى من المجلد الكبير عن "تأريخ العلوم والتكنولوجيا الهندسية في مصر، في القرنين التاسع عشر والعشرين":

"وتعتبر اللغة الإنجليزية هي اللغة السائدة في أغلب برامج التعليم الهندسي والتكنولوجي في مصر إلا أن بعض المقررات يدرس باللغة العربية، وبصفة خاصة في مقررات السنة الإعدادية (أو السنة الأولى)، كنتيجة لمحاولات تعريب التعليم الهندسي التي نشطت في مصر إبان الفترة 1959-1967 كرد فعل للنزعة القومية المجردة والاعتبارات السياسية والوطنية أساساً" (حسن إسماعيل وآخرون، 1993: 863).

وهذا القول يكشف عن عدم الغوص إلى لباب القضية والعجز عن إدراك أبعادها، فنداؤنا بأن تكون اللغة العربية لغة تدريس العلوم في المرحلة الجامعية الأولى ليس مبعثه نعرة قومية، أو اعتزازاً باللغة العربية وغيرة عليها (وهي جديرة بهما ولا ريب)، وإنما هو استجابة لضرورات ملزمة، ولتجنب أضرار بالغة، ولتحقيق فوائد مؤكدة.

5-2 ربما كان مبرر التدريس باللغة الإنجليزية في جامعاتنا الأولى، أن كثيراً من أساتذتها كانوا أجانب، وقد أدركت أنا أواخر هذا العهد، عندما كنت أطلب العلم في كلية العلوم منذ أكثر من نصف قرن، ولكنني عندما كنت أرى أستاذاً عربياً يحاضر عرباً مثله، ولكنه يحرم على نفسه وعليهم النطق بكلمة عربية واحدة، كان

ينتابني إحساس بأنها تمثيلية مصطنعة ثقيلة على الذوق والفهم، ورسخت في ذاكرتي القصة المعبرة التالية: طلب منا أستاذنا أن نحدد بعض مصطلحات الجيولوجيا ونناقشها، فرحنا نستفتي المراجع الإنجليزية – وكان ذلك مستطاعاً في تلك الأيام، وعند مناقشة تعريب مصطلح "الماجما" (أو الصهارة")، قال زميل لنا رحمه الله، ما معناه بالإنجليزية: "هي مادة الصخور في باطن الأرض تشبه البوردج في قوامها... إلخ"، وكان أستاذنا ساخراً لماحاً، فلم تفته المناسبة، وسأل زميلنا المسكين: "ما هو البوردج؟" وما كنا في ذلك الوقت ذقنا ذلك الطعام الإنجليزي، أو غمسنا فيه إصبعاً أو أدرنا ملعقة حتى نعرف قوامه، فقال زميلنا في بساطة وخفة ظل: "أنا عارف! أهي مكتوبة كِدَا!" ونقش في ذاكرتي المغزى العميق لتلك الحادثة، حين انقلب التشبيه من وظيفته في بيان المجهول بالمعروف إلى زيادة التجهيل، وهذا يظهر دور اللغة القومية في التعبير الصادق الحي، بأساليبها وألوانها وظلالها ومجازاتها الخاصة بها كما يشاع، وفلاسفة العلم المعاصرون لهم دراسات فيما يسمونه "المجاز في العلم" Metephor in science". (Brown, 1986: 139-142).

3-5 وكانت حصيلة جيلنا من اللغة الإنجليزية لا بأس بها، فقد كنا نتلقى دروسها في المرحلتين الابتدائية والثانوية، وكان بعض أساتذتنا من الإنجليز، وسائرهم من المصريين الذين يتقنون الإنجليزية كأبنائها، ومع ذلك كنا نبذل جهداً كبيراً في متابعة محاضراتنا ودراستها، وكان بعض محاضرينا يُضطر إلى الشرح والتفسير باللغة العربية، ولكن تفاقمت – مع التطور الطبيعي لجامعاتنا– عناصر المأساة" هبوطُ مستمر في دراسة أجيال الطلاب باللغة الإنجليزية هبوطاً ما لبث أن لحق ببعض مدرسيهم ممن لم تتح لهم فرصة التمكن من الإنجليزية أو طلب العلم في بلد متحدث بها (انظر أيضاً: أحمد شفيق الخطيب، 1994)، وتزاحمُ الطلاب في المدرجات والمعامل، وارتفاعٌ في أثمان المراجع الأجنبية وتعذرُ حصول معظم الطلاب عليها، وأمام هذا الموقف الحرج يضطر الأستاذ المحاضر إلى صرف جزء كبير من وقت المحاضرة في تفسير ألفاظ وتراكيب إنجليزية عادية، وإلى اللجوء إلى الشرح والتعليق باللغة العربية – أو العامية– مضمناً كلامه هنا وهناك ألفاظاً مفككة وجملاً بتراء باللغة الإنجليزية، ومتجنباً على قدر الإمكان الألفاظ والعبارات الدقيقة التي تورطه في هذا كله، ثم إن الطالب، بدوره يدر عجزه الكامل عن طلاقة التعبير

باللغة الإنجليزية، فيلجأ إلى استظهار ما دوَّن أو قرأ – على علاَّته– استظهاراً، دون فهم حقيقي واستيعاب عميق، وهكذا حين ينبغي للطالب الجامعي أن يحّلق إلى آفاق واسعة ويتعمق في أغوار بعيدة، نجد اللغة الإنجليزية قيداً له محدداً أبعاد دراسته كماً وكيفاً ومهدداً التعليم الجامعي بالسطحية والضحالة.

4–5 هذا عن وظيفة اللغة الإنجليزية في التحصيل والاستيعاب، أما عن وظيفتها من حيث اكتسابُ الطالب مقدرة على التعبير البين الصحيح، والمحاجّة وتقليب الآراء وإعمال الفكر، فإننا ندرك أنها قيد على طالبنا في هذا كله عندما نجده، في حلقة النقاش، مُلجم اللسان محجماً عن السؤال والجواب، وإن ما نبتلى كلَّ عام بقراءته من إجابات بعض طلابنا في امتحاناتهم يجعلنا نرثي لما يعانون في محاولتهم التعبير عن أنفسهم، بل في إفراغ ما استظهروه، ويدعونا أيضاً للرثاء لنفسنا لما نعانيه في تبين ملامح ما يجهدون أنفسهم في الإفصاح عنه، وهذا أمر يضعنا في النهاية في موقف محير، بين ما توجبه علينا ضرورات الحكم الدقيق وما يدعونا إليه العدل والإنصاف – ولا أقول الرافة– من عدم تحميل طلابنا وزراً لعلهم آخرُ من يؤخذ بجريرته.

5–5 ثم إن اللغة ليست أمراً ثانوياً في حياة الإنسان، أو مجرد وسيلة تواصل في مجتمعه، بل هي قوام فكره ووجدانه، وصيغة قيمه وعقائده، ودراسة العلوم بلغة أجنبية تضفي هذا الوصف "الأجنبي" على العلوم نفسها فيما يحس الطالب إحساساً عميقاً بأنها شيء ينتمي إليه أو إلى بني قومه، بل إنها أُحمت على ذاكرته إقحاماً، فآثارها سريعاً ما تزول، وحتى إذا استعملنا خريجنا ما تعلّم استعمله فنياً ومهنياً، ولا يكّون العلم والأسلوب جزءاً من كيانه الفكري والسلوكي، وهذا القيود المحدّدة وتلك الغربة، قد تقتل في طالبنا ما فطر عليه من مقدرة على الإبداع والابتكار، إن لم تكن أساليب التعليم العام قد أجهزت عليه قبل التحاقه بالجامعة.

6- اعتراضات مُفَنَّدة، وعقبات بعضها مُفتعل أو متَوهَّم

6–1 الآن، وقد تأكدت لنا الضرورات الملزمة، ما الذي يؤخرنا عن تعريب التعليم الجامعي؟ إنها: اعتراضات مفندة، وعقبات بعضها مفتعل أو متوهم، ولعل مشكلة المصطلحات العلمية العربية هي أولُ ما يُحتج به لعدم تمكننا من تعريب

وتدريس العلوم والمصطلحات، بأية لغة كانت، ليست هي – على أهميتها– جوهر قضية التعريب، حتى إن ظل بعضها غير مترجم أو معرب، وإنما المشكلة كلَّ المشكلة، هي اللغة من حي هي وسيلة الطالب في التلقي – قراءة أو سماعاً– وفي الاستيعاب والتعبير، بل وفي التفكير والتصور أيضاً، كما قدمنا، ثم إن المشكلة مبالغ فيها فقد توافر من المصطلحات العلمية العربية ألوف وألوف، وصنفت في معجمات من هنا وهناك، وقد أنجزت لجان مجمع القاهرة وحده أكثر من مئة وخمسين ألف مصطلح، سجلت في ستة وثلاثين مجموعة سنوية، كما أن بعضها نشر في أثنى عشر معجماً متخصصاً (محمود حافظ، 1997)، فضلاً على آلاف أخرى ما زالت تمر عبر الحواجز المتتابعة: من اللجان العلمية إلى مجلس المجمع، إلى مؤتمره السنوي، إلى مجموعة المصطلحات السنوي، ثم إلى المعجم المتخصص، وتذكر بعض المصادر أن عدد الأعمال المصطلحية والمعجمية التي صدرت في العالم العربي في الأعوام المئة الأخيرة قد تجاوز ستمَّئة (سام عماد وشحادة الخوري، 1996: 90)، وأن عدد المصطلحات التي أدخلت إلى الحاسوب في المغرب بلغ ستئمة ألف مصطلح (جميل عيسى الملائكة، 1997).

2-6 وتعريب التعليم سوف يُربي هذه الألوف، ويروّج تلك المعجمات، وفي هذا العصر تنثال علينا كلَّ يوم مصطلحات جديدة تتولد مع علم جديد، ولذلك لن تكون تلك الجهود المنظمة كافية، وسيجد المشتغلون بالعلم ومدرسوه أنفسهم يواجهون ضرورة وضعهم مقابلات عربية لتلك المصطلحات الجديدة، فمن ذلك، مثلاً، ما يلقاه مترجمو مقالات مجلة "العلوم" (ساينتفك أمريكان)، التي تصدر في الكويت، في كل مقال يترجمونه، ولذلك كان بين توصيات المؤتمر السنوي الثالث للجمعية المصرية لتعريب العلوم (1997)، حثُّ أعضاء هيئات التدريس في الجامعات العربية على العناية بالمصطلح العربي وطرق صوغه، والتوصية بتدريس علم المصطلح في مرحلة الدراسات العليا، ولا شك عندي في أن أنجح المصطلحات العربية ما يولد في أثناء ترجمة كتاب أو مقال أو إلقاء محاضرة، إذ أنه يولد مجرباً مستعملاً في سياق، ثم إنه يطرح فوراً أمام حكم الانتخاب الطبيعي الذي قد يصطفيه أو ينبذه فُيعدل عنه إلى ما هو أصلح منه، وفي تجربتي الشخصية كان اهتمامي بترجمة عدد من الكتب العلمية في شبابي هو الذي نمى عندي ملكة صناعة المصطلح العلمي العربي، وأغراني بها

وأعدَني لكي أكون بين المجتهدين في خدمتها في مجمع القاهرة،
وينبغي أن يشجع مترجمو الكتب العلمية ومؤلفوها على إلحاقها بمسرد أجنبي –عربي، وآخر عربي– أجنبي، بل أن يشدَّ عليهم لعمل ذلك،
وينبغي أيضاً أن تهتم المجامع العربية بمسح هذه المسارد وجمع جهود الأفراد والأقسام العلمية، ثم تنظر إليها بعين الاعتبار في أثناء عملها الدائب في وضع المصطلحات العلمية.

6–3 ويُحتج أحياناً بغرابة بعض المصطلحات العربية، كأسماء العضلات والعظام، لكن يا عجباً، أهي أشد غرابة عليهم من مقابلاتها اليونانية واللاتينية؟! إنما هي ألفة الاستعمال التي تذهب هذه الغربة، وثم وهم آخر، وهو أن المصطلح العربي لا يؤدي في بعض الأحيان المعنى الذي يؤديه المصطلح الأجنبي، ويبدو أنهم يتناسون أن المصطلح لا يعدو أن يكون عنواناً أو رمزاً لفكرة شاملة أو صورة مملوءة بالتفاصيل نحفظها في أذهاننا، ولا يعبر المصطلح الإفرنجي نفسُه، بمجرد معناه الحرفي، إلا عن أدنى شيء من هذا كله، بل إنه قد يتجاوز معناه اللغوي تماماً، ويُحتج أيضاً بضرورة التوحيد والإجماع في استعمال المصطلحات في أقطار الوطن العربي، وهو موضع يكثرُ فيه الجدل، وينال الكثير من العناية في مجامعنا ومؤتمراتنا، وقد شهدت هذه القاعة – فيما أعلم– نصيباً غير قليل من هذا النشاط (انظر مثلاً: محمد هيثم الخياط، 1994)، ولا أستطرد في موضوع المصطلحات إلى أبعد من هذه الإشارات، فهو موضوع تعقد له الندوات وتصنف المؤلفات (مثلاً: ضاحي عبدالباقي، 1992، محمود فهمي حجازي، 1993)، ولكننا دائماً نطلب العون من إخواننا علماء اللغة، ونرجوهم أن يدركوا ما نلاقي من عنت ونصب وحيرة في محاولتنا إيجاد المقابلات العربية للمصطلحات العلمية الأجنبية، التي لا نهاية لابتكارها بلا حدود أو قيود، ولفروقها الدقيقة اللطيفة، وأن يسمحوا لنا بشيء من التخفف والتجوز والترخص أو مراعاة ما أسماه الدكتور محمد هيثم الخياط، من هذا المنير "الضرورة العلمية"، قياساً على "الضرورة الشرعية" و"الضرورة الشعرية"؛ والضرورة – كما هو معلوم– بقدرها.

6–4 ومما يساق أيضاً أن الإنجليزية تُتَّخذ لغة تدريس العلوم، لأنها توفر لقارئها مدداً غنياً متجدداً من المراجع، ولكننا إذا تأملنا واقع الحال، نجد أن اللغة الإنجليزية

قد أصبحت لقدرة الطالب المحدودة جداً فيها، أغلالاً يرسف فيها مقيداً في متن واحد حاول أستاذه جاهداً تذليله له، ولا تمكنّه قدراته اللغوية من ارتياد سواه، وعلى نقيض ذلك تماماً، لن تكون اللغة عائقاً أمامه للاستزادة من مراجع متعددة باللغة العربية لو أنه تعلَّم بها.

6-5 وقد يُعترض بعدم وجود عدد كاف من المؤلفات والمترجمات في العلم باللغة العربية، ولا شك أن ينبغي تزويدُ مكتباتنا بتراجم جيدة لأمهات الكتب العلمية، وبمؤلفات تقدم آخر منجزات العلوم ومستحدثاتها، معروضة عرضاً حسناً يناسب مستويات الطلاب الذين تعد لهم، ومتضمنة أمثلة من بيئاتنا، ومتعرضة لمشاكلنا الإقليمية الخاصة، ثم تُحدَّث طبعاتها المتلاحقة، والواقع أن هناك جهوداً كثيرة مبعثرة، قد أجهض عدم تعريب التدريس كثيراً منها وأهدر ثمارها، وهكذا تدور الدائرة المفرغة **والكتب العلمية المنشورة في معظم البلاد العربية غير قليلة العدد، وبخاصة في البلاد** التي عُرب فيها التعليم الجامعي، بل إن بعض دور النشر العالمية سارع إلى تنفيذ برامج ناشطة لنشر كتب علمية مترجمة إلى العربية، وذلك لأغراض شتى، بعضها اقتصادي، ولكنها قد تهدف أيضاً إلى نشر ثقافات بلادها في الوطن العربي والمبادرة إلى احتلال موضع لها في مجال أحستّ أنه كاد ينفتح، وقد أوصى المؤتمر السنوي الثالث (1997)، للجمعية المصرية لتعريب العلوم بحث الجامعات على تيسير تبادل الكتب العلمية المؤلفة والمترجمة فيها، وتوصى المنظمة العربية لتربية والثقافة والعلوم بدعوة الجامعات والمؤسسات العلمية المختلفة للتعاون تعاوناً وثيقاً مع المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر الذي أنشأته المنظمة في دمشق (سام عمار شحادة الخوري، 1996: 99).

6-6 وثمة عقبة أخرى كأداء، وهي حاجز نفسي من الوهم والتهيب والتردّد، ففي جولات من الحوار مع طلابي، اتضح لي أن كثيراً منهم يتمسك بالتعليم باللغة الإنجليزية، مع عجزه عنه، لتصوره أنه مستوى أرقى يميزه عمَّن يتعلمون بالعربية في كليات أخرى؛ وهذا بالقطع وهم باطل، ومن ناحية أخرى تعَّلل بعض المعترضين من الأساتذة بعدم استطاعتهم التدريس باللغة العربية، ولكن اتضح لي أن معظم هذا الاعتراض راجع إلى اختيارهم الطريق الأقصر والأيسر لهم، فهم قد تعلموا بالإنجليزية، ومراجعهم إنجليزية، ويلقي التعريب عبئاً إضافياً عليهم، ولكن هذه الدائرة

المفرغة ينبغي أن تقطع في حزم مع الإلحاح في الدعوة والإقناع، واتخاذ بعض التدابير لمعونة الزملاء ولإرشادهم.

6-7 وقد يقال إن الحلَّ البديل للمشكلة هو رفع مستوى طلابنا في اللغة الإنجليزية، ولكن محاولاتنا المتكررة والمتباينة الوسائل لتحقيق هذا الهدف في كلياتنا، لم تثمر للأسف ما كنا نبتغيه، وقد يقال إن أصل الضعف في اللغة سابق للجامعة، فيجب معالجته في التعليم العام ولكن هذا الحل غير عمليّ وغير صائب أيضاً، فإتقان القاعدة العريضة لطلاب التعليم العام لغةُ أجنبية يتطلب الاهتمام بها منذ بواكير سني التعليم، وهذا أمر غير مستطاع بعد أن اتسع التعليم العام، بل إنه حتى إنْ كان مستطاعاً، يُعدّ أمراً فيه عيوب نفسية وتربوية، ومضارُّ قومية وخسائرُ في الجهد والمال، فما هي جدوى تعليم أبناء شعب بكاملهم لغةً أجنبية لن تستفيد الكثرة الغالبة منهم منها بشيء، مع الاعتداء على جزء نفيس من وقت الناشئ، وإدراكه ينبغي أن يصرف كله في تربيته تربية قويمة متكاملة؟.

7- مسوِّقات التعريب

7-1 أما وقد أدركنا حقيقة الضرورات التي تُلزمنا التعريب، ووهم الاعتراضات والمعوقات التي تقام في سبيله، فما الذي يحول دون تحقيقه؟ قد نسمع أحياناً أننا بمواجهة مخطط أجنبي يهدف إلى إضعافنا من خلال توهين صلاتنا باللغة التي توّحد بيننا، وتربط حاضرنا بماضينا، ونسمع أن أشباح الاستعمار الراحل وأشياعه يسلكون إلى ذلك سبلاً، منها تغريب لغة العلم، وهذه ذريعة توهم بأننا أمام عدو كير خفي لا نستطيع مواجتهه، ولكن حتى إن كان الأمر كذلك، فإن هذا أدعى لأن نحتشد أمام ذلك العدو، ونعد القوة والعُدَّة لإفشال مخططه.

ولكنني أعتقد أن قرارانا بأيدينا، وأننا نحمّل غيرنا جرائر تقصيرنا وضعف حيلتنا وقلة همتنا، وأننا نعيب زماننا والعيب فينا."... إن الله لا يغيرّ ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..." (الرعد:11). أذكر أنه كان لي حوار – وأنا عميد لكليتي – مع الدكتور دانيلز الأديب الذي كان مديراً لمكتب المجلس البريطاني في القاهرة في السبعينات، وأحس الرجل كأنني أقف موقف المدافع مبرراً دعوتي لتعريب التدريس في كليات

العلوم، فقال لي: "لا شك أنكم محقون في هذا، وأخبر زملاءك أننا غير راضين عما تفعلونه بلغتنا!".

7–2 ومن مسوقات التعريب ما يقال من أننا يجب أن نضع المصطلحات العلمية العربية وأن نوحدها، وأن تترجم جميع الكتب اللازمة للتعريب أو نؤلفها، وذلك قبل أن نبدأ تعريب التعليم الجامعي، وقد ذكرت لحضراتكم، في موضع متقدم من حديثي، أن عدم البدء بالتعريب هو الذي أجهض الجهود التي بذلت في هذا السبيل، والواقع إن عدم التعريب هو الذي لا يجمع الخيوط، ولا يوحّد الجهود، ولا يسمح بحسن استغلال الموجود ولا يشجع على تنميته.

7–3 ويقولون أيضاً إنه يجب علينا أن نرفع الكفاءة اللغوية لمحاضري الجامعة، وأن ندربهم على التعبير الصحيح قبل أن نبدأ التعريب، وهذا مطلب حسن، ولا شك، ولكنني أعود فأقول إن العربية غير موظفة كلاماً وكتابة – بصورة نظامية– في الكليات غير المعربة، ولن يكون هناك أمل في رفع شأنها والاهتمام بها في تلك الكليات، إلا إذا بدئ التعريب ووجد الحافز، ثم إننا لا نحلم بأن يكون محاضرونا أئمة بلاغة وفصاحة، وما كان العرب في صدر الدولة الإسلامية متساوين في هذه الملكات، ويشهد أبو العلاء على عصره بالفساد – حتى في اللغة– في بيت ساخر معبّر، كثيراً ما يتمثّل به أخي المجمعي الدكتور محمد يوسف حسن:

فسد الأمر كله فاتركوا الإعراب، إن الفصاحة اليوم لحن إذن فهي شكوى كل زمان، وكان أبي، رحمه الله، يحكي مبتسماً قوله أحد شيوخ النحو: "النحو صنعتنا، واللحن عادتنا"! والذي أظنه أن التدريس بالعربية، هو الذي سوف يقوم ألسنة المعلمين والمتعلمين، ولو بعد حين.

7–4 ويدعو الغيورون على العربية إلى الاهتمام بها، قبل التعريب، فها هو العالم الحافظ، الدكتور عبدالله الطيب، رئيس مجمع الخرطوم، ينادي في مؤتمر مجمعنا بالقاهرة عام 1994:"لا بدَّ من الإعراب للتعريب" داعياً إلى تعليم النحو تعليماً صحيحاً، وإلى الاهتمام بالنصوص المختارة الجيدة، وتجويد الخط العربي ورده إلى أصوله القديمة، وما إلى ذلك من وسائل النهوض بلغة الأجيال المقبلة من المتعلمين، ثم يعود الدكتور الطيب إلى مؤتمر مجمعنا عام 1997، فيكلمنا عن التعريب في

أربعة مواقع ويدعو – بين أمور مهمة كثيرة– إلى الارتفاع بمستوى من نعدُّهم لتدريس اللغة العربية والعمل على رفع مستواهم المادي والاجتماعي، وهذا لعمري مشروع قومي عظيم، يهون بجانبه مشروع تعريب لغة تدريس العلوم في الجامعات، وعلى حد قول الدكتور أحمد شوقي: يجب علينا أن نفرق بوضوح بين لغة العلم وتعليم اللغة، فهما قضيتان مختلفتان (أحمد شوقي، 1996).

8- خطة التعريب

8–1 في صدر شبابي، قال لي طبيبي: ليس بك مرض عضوي، وشكواك كُلّها عصبية، مرجعها إلى أنك تقسو على نفسك وتبتغي المثالية أو الكمالية Perfectionism.

فرددت: إنْ كان هذا حقاً، فهو نعمة كبرى من الله، أرجوك ألا تشفيني منها، فإن الله ورسوله يحبان منا الإحسان والإتقان في كل ما نعمل، ولكنني في قضية التعريب، أتنازل راضياً عن هذه المثالية التي نسبها إلي طبيبي الذي أحسن بي الظن، فعلى غير طبيعتي أيضاً، أرى أن تعريب التعليم الجامعي في مصر، يجب أن يقتحم اقتحاماً، ما دامت الدوافع إليه قوية ملزمة، وأهدافه واضحة نافعة.

وكثير هو ما يقال عن "استراتيجيات" تعريب لغة العلوم، ولكنني انتهيت إلى أن الخطة المثلى هي الشروع فيه بلا توان، مع دفعة جديدة من طلاب الجامعة، فيدور الدولاب، وتلبَّى الحاجات، وتُسدُّ الثُّغر، وتُفتق الحيل، ثم تنمو الخطة وتتكامل مع مضي طلاب تلك الدفعة في التعليم عاماً بعد عام، وليكن في تاريخنا القريب عبرة: ففي سنة 1938 أصدر الوزير الأديب الدكتور محمد حسين هيكل قراراً بتعريب التدريس في الجامعة، ولكن كلية الطب (الوحيدة في ذلك الوقت) طلبت استثناءً لمدة عشر سنين حتى يتم وضع المصطلحات العربية وتؤلف الكتب الجامعية (السيد أحمد فرج، 1993\9)، وواضح أن هذه المهلة قد جددت آلياً وتطاولت حتى تجاوزت كثيراً نصف قرن من الزمان!

8–2 وثمَّ إجماع على أن تعريب التعليم الجامعي لا يتحقق في أي بلد عربي إلا بقرار سياسي، وفي المؤتمر السنوي لمجمع القاهرة سنة 1994، الذي كان محوره الأساسي "التعريب"، تقدمت باقتراح محدد، يحتال لجعل القرار سياسياً ومجمعياً

وجامعياً، وفحواه أن يعد المجمع مذكرة موجزة وافية تجمع آمالنا وآراءنا في موضوع التعريب، ثم يقدمهما إلى وزير التعليم، برجاء أن يحيلها الوزير إلى المجلس الأعلى للجامعات الذي يطلب بدوره، من مجالس الجامعات والكليات والأقسام المعنية أن تضع الأمر موضع دراستها الجادَّة الناجزة – في غير تباطؤ أو تعجل– توطئة لاتخاذ القرار السياسي عن بينة وإقناع، وعلى أن يكون من أركان خطة التعريب المقترحة، الشروعُ بلا توان في تنفيذها مع دفعة جديدة من الطلاب، كما قدمت، وبشرط ألاّ تتجاوز مهلة الاستعداد المبدئي للبدء في التعريب عامين من اتخاذ القرار، ولكن التوصية تاهت بين توصيات الحث والحض والدعوة والمناشدة، التي انتهى إليها المؤتمر، وفي مؤتمر هذا العام (1997)، الذي كان موضوعه "التعريب" أيضاً، انتهزت فرصة تعليقي على بحث الدكتور جميل عيسى الملائكة (ألقاه الدكتور ناجح الراوي)، رئيس المجمع العلمي العراقي، فجددت الاقتراح بنصه، ولكنه ذاب هذه المرة في التوصية الأولى للمؤتمر التي كان صدرها: "يوصي المؤتمر الحكومة المصرية وسائر الحكومات العربية بالعمل على تعريب التعليم العالي الجامعي .. إلخ" ولكنني سوف أعاود الكرة، إن شاء الله، عملاً بنصيحة محمد بن بشير:

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع بالأبواب أن يلجا!

8–3 وعلى أية حال علينا ألاَّ نملَّ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، أو نقنط من عدم الاستجابة الكاملة لها، مع أن كثيراً مما أقوله اليوم نشرته عام 1976، وسبقني إليه جيل من أساتذتي الرواد الإجلاء في مصر (انظر مثلاً: عرضاً تاريخياً مجملاً عند محمود حافظ، 1997)، وكوكبة من قادة الفكر العربي، وكان من وسائل مداومة الدعوة إنشاؤنا عام أربعة وتسعين جمعية لتعريب العلوم في مصر، عقدت مؤتمرها السنوي الأول عام خمسة وتسعين، والثاني عام ستة وتسعين في رحاب جامعة الأزهر الشريف (ونشر عرض عام عنه في مجلة "الخفجي"، عدد يونيو 1996)، ثم عقدت هذا العام (1997) ندوة عن الأرقام العربية في دار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وثانية عن الرموز الرياضية العلمية في دار نقابة المهن العلمية، وذلك تمهيداً لمؤتمرها السنوي الثالث الذي عقدته في جامعة عين شمس وشارك فيه

زملاء من اثنتي عشرة دولة عربية، وجاء على لساني في ندوة المجمع أننا قد عقدنا العزم على أن "نرابط" لمتابعة السعي الجاد الدؤوب لتحقيق آمالنا في تعريب العلوم. ويبدو أن فكرة "المرابطة" هذه قد أعجبت الأستاذ الدكتور شوقي ضيف، رئيس المجمع، فما فتئ يكررها كلما ذكر الجمعية، فيزيدنا تورطاً في الالتزام بما زعمناه!

8–4 ولا أريد أن أطيل على حضراتكم بسرد قائمة بما يحسن عمله إذا بدأ التعريب، حتى لا أُملّ لكثرة ما تردد على أسماعكم منه، وجاء بعضهم فيما تقدم من حديثي الليلة، لكن لعل من الأمور المفيدة إنشاء لجان للتعريب والترجمة والتأليف في كل جامعة وكلية وقسم علمي للتوجيه والإرشاد والتنسيق، ونصح الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة (1987: 202) في كتابه عن "العربية والتعريب"، "بإنشاء مركز رئيسي للتعريب والترجمة والنشر تكون مهمته نقل العلوم والتقنيات الحديثة إلى اللغة العربية.." وأوصى كتاب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عن التعريب، الصادر عام 1996، بأن تشكل في كل قطر عربي "لجنة دائمة للتعريب" تتمثل فيها الوزارات والمجامع والمجالس والجامعات والهيئات المعنية لتتولى الاهتمام بموضوع التعريب وتأمين مستلزماته..." (1997)، نائب رئيس مجمع القاهرة، في المؤتمر السنوي الأخير للمجمع "إنشاء هيئة أو مؤسسة كبرى للترجمة والتأليف تضع خطة دقيقة لها.." ودفعت الحماسة المجتمعين في المؤتمر السنوي الأخير للجمعية المصرية لتعريب العلوم (1997) إلى التوصية بأن تدرس الجمعية إقامة آلية لتكوين صندوق مالي ينشئه الخيرون في الوطن العربي، لرعاية قضية التعريب، وتنسيق ترجمة مصادر العلم الأجنبية المتجددة إلى اللغة العربية، ورعاية قضية الترجمة العلمية والمترجمين ذاتها"، وقلت يومئذ معلقاً بأنه حتى لو حقق هذا وتدفق المال المرتقب، لاعتذرت عن قبوله إذا لم توجد خطة محكمة، وإدارة متفرغة خبيرة، وجهاز تنفيذي كفء للقيام بالعمل ... فليس بالمال وحده تتحقق الغايات.

8–5 وفي مصر، حيث تتعدد الأقسام العلمية والأساتذة تعدداً واسعاً، لا بد من تعدد الكتب المترجمة أو المؤلفة حتى في الموضوع الواحد، ولا بدَّ أن تتعدَّد الخيارات والاجتهادات ففي خبرتي أنه ليس من اليسير أن يقبل أستاذ التدريس من كتاب مفروض عليه، ثم إنه ليس من الخير – على كل حال– الاكتفاء في التعليم الجامعي بكتاب واحد مقرر، وأمهات الكتب العلمية المترجمة يمكن أن تكون مصادر عامة.

أما الكتب المؤلفة فالأرجح في ظني أنها سوف تتعدد في الجامعات والكليات، ونحن نعلم يقيناً أن العبء كبير، ولكن لا مندوحة عن مجابتهه والقيام به.

9- ثمار جنية ومنافع مؤكدة

9-1 في أوائل السبعينات، أتاحت لي الظروف أن أقوم بما يشبه التجربة العلمية المقصودة، وذلك إنني كنت أحاضر باللغة الإنجليزية، ثلاث ساعات أسبوعياً، في مقرر متقدم عن "علم الحيوانات الأولية" لطلاب وطالبات الفرقة الثالثة بكلية العلوم بجامعة عين شمس، ثم دعيتُ لأقدم المقرر نفسه لطالبات كلية البنات بالجامعة نفسها، ولكن في ساعتين فقط أسبوعياً، وتركت لي إدارة القسم الداعي حرية تقديم المقرر باللغة العربية أو اللغة الإنجليزية، فلما خيّرت الطالبات، تمنين علّي أن يكون بالعربية، وقد فعلت، تكررت التجربة في عام تالٍ، وتأكد لي في المرتين أن حصيلة طالبات كلية البنات كانت أكبر، وكان فهمهن للموضوع أتم وأعمق، في وقت أقصر وبجهد أقل- مع تكافؤ المجموعتين على وجه العموم، وتتوافر أمثال هذه التجربة على ألسنة عدد من الزملاء الذين خاضوها في أماكن مختلفة، ولكنها جميعاً لا ترقى إلى الدراسة العلمية الموضوعية لتقويم تعريب المرحلة الأولى من التعليم ا لجامعي في كليتي العلوم في الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، التي عُرضت نتائجها على مجمعكم الموقر عام 1981، وكانت إيجابية ومشجعة للغاية (عبدالكريم خليفة، 1987: 154-156).

9-2 واللغة – كما قدَّمنا- عنصر رئيسي للكيان الذهني والعاطفي للإنسان، ولذلك كان من مزايا التدريس بلغة المتعلم الأصلية، أنه يجعل عملية التعُّلم أقرب إلى التمثيل البيولوجي السوي للغذاء، تحيل العلم جزءاً من صميم البناء الذهني للمتعلّم له آثار أبقى وأقوى وآصل وأعمق، فتجتمع عنده أدوات المقدرة على التخيل والمناقشة والنقد، وعدةُ الابتكار الأصيل، كذلك يصبح تعلّم العلوم عنده معرفة وثقافةً، فضلاً على كونه تخصصاً أو مهنة.

9-3 ويمكننا أن نتصور لغة العلم مركزاً لأربع دوائر متداخلة: في الأعمال والمهن العلمية، وفي تدريس العلوم، وفي نشر الثقافة العلمية، ثم – رابعاً – في البحث العلمي ونشر نتائجه،

وتدريس العلوم بالعربية يزيد من تآزر الدوائر الثلاث الأولى، فمن "تعلّم" بالعربية، لن يكون عسيراً عليه أن "يعمل" بالعربية، وأن "يعلّم" بالعربية، وأن يقوم بدوره في العطاء والإسهام في نشر الثقافة العلمية بين بني وطنه (عبد الحافظ حلمي محمد 1976، 1980–أ).

4–9 وتدريس العلوم في الجامعة باللغة العربية سوف يزيل الحاجز اللغوي بين طبقة المتخصصين الجامعيين ومن يلونهم من الفنيين وأمناء المعامل والممرضين والمساعدين، وهذا سوف يزيد من كفاءة الأعمال العلمية بصفة عامة، ثم إنه يتيح لطبقة الفنيين الوسطى أن تفيد من خبرة رؤسائهم الجامعيين وعلمهم، وتفتح لهم أبواب الاطلاع على الكتب الجامعية المنشورة بالعربية، فيستكملون ما ينقصهم ويحرزون تقدماً أصيلاً في فنونهم، هذا فضلاً على جانب إنساني، حينما يصبح التفاهم بين الطبيب ومريضه أيسر وأوثق.

5–69 نحن الآن نعيش عصر العلم، ومن المؤكد أن شيوع تدرّب اللسان القومي والقلم القومي والفكر القومي على تناول قضايا العلم ضرورة من ضرورات العصر، إذ إنه يمكن المواطنين– في جملتهم وعلى تنوع مراتب ثقافاتهم وتباينها – من أن يعيشوا عصرهم ويحسنوا فهم قضاياه، وهذا يسهم أيضاً في عبور الفجوة، أو الجفوة بين "أهل الثقافتين"، ثقافة الإنسانيات وثقافة الدراسات العلمية، التي أثارها سير تشارلي برسي سنة C.P.Snow في أوائل الستينات (عبدالحافظ حلمي محمد، 1980–ب)، وهذا يعني زيادة في ترابط الأمة وتضافر جهودها.

ويرتبط بهذا المعنى ما جربته في جامعة الكويت في الثمانينات، فمقررات علم الحيوان تقدم كلها لطلاب كلية العلوم وطلاب الطب باللغة الإنجليزية، ولكنني دعيتُ لاستحداث مقرراً عن "بيولوجية الإنسان" أقدمه باللغة العربية للراغبين به من طلاب الكليات الأخرى: كلية الحقوق والشريعة، وكلية الآداب وكلية التجارة، وكلية الهندسة، بل سعيت حتى أصبح يستقبل طلاب كلية العلوم نفسها ممن لا يدرسون علوم الحياة فيها، فكان الإقبال عليه، –بفضل الله– عظيماً فاق كل توقعات القسم وإمكاناته؛

وأسفرت دراسة موضوعية أجرتها كلية التربية عن أن طلابها قرروا أنه كان أكثر المقررات التي درسوها من خارج كليتهم نفعاً لهم، ولولا اللغة العربية ما تمكنت من أن أخاطب عقول جميع هؤلاء الطلاب المتباينين المشارب وقلوبهم، وما استطعت أن أجعل المقرر نسيجاً متماسكاً من العلم والدين والأدب.

9-6 وتدريس العلوم بالعربية في الجامعة، فيه خدمة جليلة للغة العربية ذاتها، فهذه اللغة المشرفة قد حفظها الله بحفظ القرآن الكريم، لكن خدمتها وإثراءها وتجديد حيويتها بحسن توظيفها في قضايا الحياة المتجددة في عصورها المتعاقبة ... يظل هذا كله أمانة مفروضة على أبنائها في كل عصر، والحق أن أسلافنا في عصور الإسلام الزاهرة قاموا بحقوق هذه الأمانة على خير وجه، وينبغي ألا نقصر في إسهامنا بدورنا التاريخي نحوها.

10- اللغات الأجنبية وتعريب العلوم

10-1 ولكن علينا، ونحن ننادي بأن نجابه واقع الحال وألاّ ندفن رؤوسنا في الرمال، أن نحذر – في الوقت نفسه– أن نتعالى بها أكثر مما ينبغي نحو عنان السماء، فهناك حد فاصل أو موازنة دقيقة بين جلب المنفعة والحفاظ على الهُوية من ناحية، والتخلف والعزلة من ناحية أخرى، ولهذا يتحتم علينا أن نحافظ على قنوات الاتصال بالعلم العالمي كله مفتوحة جارية، وعلينا أن ندرك أن بعض اللغات الأجنبية (وخصوصاً الإنجليزية) سوف يظل أمداً طويلاً وسائط نشر البحوث العلمية الأصيلة والاتصال بالأوساط العلمية العالمية، ومن ثم كان لزاماً على الصفوة المختارة للبحث العلمي والدراسات العليا والقيادة العلمية أن تتقن لغة أجنبية، وهذه هي الدائرة من دوائر لغة العلم الأربع التي ذكرتها منذ قليل.

10-2 والذين يلتحقون بالدراسات الجامعية العليا قلة، فضلاً عن تميزهم النسبّي، وتحدُّد مستقبلهم العلمي والعملي، وهذا كله يجعل العمل على إتقانهم لغة أجنبية أمراً ممكناً من ناحية، وعملاً مجدياً من ناحية أخرى، فهؤلاء هم الذي يطَّلون ويبحثون وينشرون، أما عامة خريجينا فقلما يطلب منهم، أو يتاح لهم شيء من هذا، وعليه ينبغي أن يكون إتقان لغة أجنبية من بين الأهداف البارزة عند إعداد طلاب الدراسات العليا، وينبغي أن تُتخذ كل الوسائل الكفيلة بتحقيقه، ولا بأس من أن يتفرغ أولئك

الطلاب زمناً يبذلون فيه جهداً مكثفاً لبلوغ هذا الهدف، ويشجعنا على هذا الرأي أننا رأينا بعضاً من شبابنا أوفدوا إلى بلد لا يعرفون من لغة أهله شيئاً، فإذا بهم بعد أن عهد بهم إلى مدرسين خبراء بوسائل التعليم اللغوي المستحدثة، قد أصبحوا بعد أشهر معدودات أكفاء لإنجاز مهامهم العلمية بنجاح هذا عن الدراسات الأكاديمية لدرجتي الماجستير والدكتوراه، أما الدبلومات المهنية العليا، فلا بأس من أن يكون التدريس فيها باللغة العربية، بل لعل هذا هو الأولى والأنسب.

10-3 والعلميون الأكفاء في اللغات الأجنبية واللغة العربية هم الذين يمكن أن يعهد إليهم بأعمال الترجمة العلمية لنتائج بحوث إخوانهم العرب المنشورة باللغات الأجنبية، أو تلخيصها وعرضها، وكذلك ترجمة الفيض المتدفق من الأعمال العلمية العالمية، فكأنني أريد أن أقول إن اللغة العلمية العربية فرض عين على دارسي العلوم والمشتغلين بها عندنا، أما اللغة العلمية الأجنبية فهي فرض كفاية على الصفوة المختارة منهم للقيام بها.

10-4 وأعتقد أنه من الخير – على أية حال- أن يُنظر في أن تخصص إحدى الجامعات المصرية شعبة معينة لتدريس العلوم في المرحلة الجامعية الأولى باللغة الإنجليزية، هي التي تستقبل الطلاب الوافدين من غير الناطقين بالعربية، والراغبين من الطلاب المصريين الذين أتموا دراستهم الثانوية في الخارج، مع الوفاء طبعاً بشروط تحقق الحد الأدنى من الكفاية في اللغة العربية لخريجي الجامعات المصرية غير الحاصلين على شهادة إتمام الدراسة الثانوية المصرية أو ما يعادلها في البلاد العربية الأخرى، على النحو الذي يحدده قانون تنظيم الجامعات المصرية.

وغني عن القول إنه يجب أن يعتني بأن يتابع طلابنا الذين يدرسون العلوم باللغة العربية اهتمامهم باللغة الإنجليزية العلمية في دروس معينة، وأن تعرض عليهم دائماً المصطلحات الأجنبية للعلوم التي يدرسونها.

اللهم هيئ لنا من أمرنا رشداً، وأنت –سبحانك- وليّ التوفيق

المراجع

إبراهيم جميل بدران وآخرون، 1995، تأريخ الحركة العلمية في مصر الحديثة. العلوم الطبية، أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، القاهرة (624ص).

إبراهيم عبدالله رفيدة، 1997، معنى وضوابطه في تراثنا اللغوي القديم وصور منه. المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، في دورته الثالثة والستين (تحت الطبع).

أحمد شفيق الخطيب، 1994. تعريب العلوم: القضية، المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في دورته الثالثة والستين، (تحت الطبع).

أحمد شوقي، 19965. تعريب العلوم و"فقه التقدم".

– علوم وتكنولوجيا، (الكويت)، 26: 32–35.

أحمد عزت عبدالكريم، 1938، "تاريخ التعليم في عصر محمد علي". النهضة المصرية، القاهرة، (798ص، عن: عايدة نصير، 1994).

أحمد مستجير ت 1989، "كلية الزراعة (جامعة القاهرة)، في مئة عام : 1889–1989"، مطابع الطوبجي التجارية، القاهرة (126ص).

السيد أحمد فرج، 1993، "تعريب التعليم الجامعي، ضرورة علمية وإسلامية". دار الصحوة، القاهرة، (136ص).

جاك تاجر، 1945."حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر". دار المعارف، القاهرة. (158).

جمال الدين الشيال، 1951، "تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي". دار الفكر العربي، القاهرة (228ص، عن: عايدة نصير، 1994).

جميل عيسى الملائكة، 1997، التعريب واختلاق المعوقات، المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، في دورته الثالثة والستين، (تحت الطبع).

حسن إسماعيل وآخرون، 1993، "تأريخ العلوم والتكنولوجيا الهندسية في مصر، في القرنين التاسع عشر والعشرين"، أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، القاهرة (جزءان، 1046ص).

خالد علي رويشدي، 1996، آفاق التعريب في العصر الحديث.
علوم وتكنولوجيا (الكويت) 29: 19-25.

سالم عمار، وشحادة الخوري، 1996، "التعريب في الوطن العربي، واقعه ومستقبله: من أجل خطة عامة للتعريب" المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس (146ص).

شوقي ضيف، 1984."مجمع اللغة العربية في خمسين عاماً، 1934-1984". مجمع اللغة العربية، القاهرة (211ص).

ضاحي عبدالباقي، 1992."المصطلحات العلمية والفنية وكيف واجهها العرب المحدثون".
مكتبة الزهراء، القاهرة، (326ص).

عايدة إبراهيم نصير، 1994،"حركة نشر الكتب في مصر في القرن التاسع عشر". الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (653ص).

عبدالحافظ حلمي محمد، 1976. اللغة العربية لغة العلم.

1980 –أ: "لغة تدريس العلوم في الجامعات".

في تعريب التعليم الجامعي والعالي". الأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية، القاهرة، 153-..159

1980–ب:"الفجوة المتوهمة بين الدين والعلم. المؤتمر السنوي للمجمع المصري للثقافة العلمية – القاهرة، الكتاب السنوي للمجمع، 49 (1979): 17-37.

1992: المعارف البيولوجية في رسائل إخوان الصفا.
مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة : 71: 67-98.

1997: الإسلام واللغة العربية والعلم. المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، في دورته الثالثة والستين. (تحت الطبع).

عبدالكريم خليفة، 1987:"اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث"، مجمع اللغة العربية الأردني، عمان (291ص).

1997: اللغة العربية، والإبداع الفكري والعلمي في العصر الحديث، المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، في دورته الثالثة والستين (تحت الطبع).

عبدالله الطيب، 1994، لا بدّ من الإعراب للتعريب، المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، في دورته الثالثة والستين (تحت الطبع).

1997: الترجمة والتعريب، المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، في دورته الثالثة والستين (تحت الطبع).

علي محمد أسعد، 1996، تدريس الطب باللغة العربية بين مؤيديه ومعارضيه: آراء وانطباعات الخفجي، 26 (يوليو): 13–19.

عمر الإسكندري، وسليم حسن، 1917."تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر"، مطبعة المعارف، القاهرة (310ص).

كمال بشر، 1994، التعريب بين التفكير والتعبير، المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، في دورته الثالثة والستين (تحت الطبع).

محمد السويسي، 1993، دور المصطلحات العلمية التراثية في عملية التعريب المعاصرة، الموسم الثقافي الحادي عشر لمجمع اللغة العربية الأردني: 29–49.

محمد هيثم الخياط، 1994، نحو منهجية موحدة لوضع المصطلح العربي الحديث. الموسم الثقافي الثاني عشر لمجمع اللغة العربية الأردني: 93–120.

"في سبيل العربية" (142ص).

محمود حافظ، 1997، قضية التعريب في مصر، المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، في دورته الثالثة والستين (تحت الطبع).

محمود فهمي حجازي، 1993. "الأسس اللغوية لعلم المصطلح".

مكتبة غريب، القاهرة (259ص).

Brown,H. 1986. "The Wisdom of Science: its Relevance to Culture and Religon". Cambridge University Press. Cambridge (194p).

Gaukroger s.. 1996. Arabic Science.

Metascience, 10: 180-181.

Russel, G.A 1981. Islamic Scinece

In: Dictionary of the History of Sciwnce

(eds: W.F Bynum, e.j..Brown, r. Porter)
The Mecmillan Press, London.